السَيد القَمْبِيطُور

وعلاقاته بالمسلمين

مما يؤثر عن عبد الرحمن الناصر أنه : « وُجد بخطه تاريخ قال فيه : أيام السرور التى صفت لى دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، فعُدَّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوماً » .[1] وهذه الملاحظة تصلح أن تكون رمزاً على تاريخ الأندلس الإسلامى كله : فقد دخل الإسلام شبه الجزيرة الإيبيرية على أوائل القرن الثامن الميلادى (أواخر الأول الهجرى) ، ولم يَزُل أمره منها إلا فى أواخر القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) ، فإذا أردنا حصر فترات الهدوء والاستقرار والسلام الشامل والرخاء الصحيح ، لم تبلغ فى مجموعها مائة عام متفرقة بين عهود عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وعبد الرحمن الأوسط والناصر والحكم المستنصر وهشام المؤيد . ولم يستطع أولئك الأمراء والخلفاء ورجالهم إقرار الأمور خلال تلك الفترات القصيرة إلا بجهد شديد وكفايات نادرة ، لأن إسبانيا بلد وعر عسير الحكم ، وأهله ذوو جلد وعناد وميل متصل إلى الفردية والاستقلال بعضهم عن بعض . وقد ركب العرب مركباً صعباً بدخولهم إسبانيا ، وتكلفوا فى إقامة أمرهم ونشر دينهم ولغتهم فيها جهوداً تبلغ أضعاف ما بذلوه فى إخضاع أى قطر آخر مما فتحوه ، عدا المغرب : كان لا بد لهم من جيش قوى قائم على الأهبة للقضاء على كل نزعة ثورية أو انفصالية ، ولم تكن لهم مندوحة عن موالاة الغزوات على الممالك والإمارات النصرانية فى الشمال ، فإذا غفلت أعينهم بعض الشىء أو تراخت يدهم بضع سنوات انتقضت النواحى وتواثب الثوار فى المعاقل والحصون وأفلت الزمام من أيديهم . وزاد فى عسر هذه المهمة أن الشعب الذى كان على أولئك الأمراء والخلفاء حكمه كان شعباً متمرداً بطبعه ، عسير الانقياد

---

(١) ابن عذارى : « البيان المغرب » (طبعة دوزى) ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

بمزاجه المركب من عناصر ثلاثة كلها عنيد عسير : أولها الإيبيريون الرومان بما جبلت عليه نفوسهم من الصبر والشدة ، وثانيها البربر بما فى طباعهم من العناد والشجاعة والاستهانة بالدماء[١] ، وثالثها العرب بما جبلوا عليه من الأنفة والتهور وكراهة السيادة والنظام وما عرف فيهم من الفردية الشديدة . ولو أننا تتبعنا الجهود المضنية التى بذلها أمراء كعبد الرحمن الداخل والحكم الربضى وعبد الله ابن محمد لإخضاع العصاة والثائرين ، لتبينا أن أمراء البيت الأموى وخلفاءه كانوا فى الواقع كالقابض على الجمر ، ولتبينا كذلك أن الاستقرار الذى ساد عصورهم كان حالة غير طبيعية فى إسبانيا ، أما الحالة الطبيعية للتاريخ الإسبانى عامة — فى عهود المسلمين وغير المسلمين — فهى التفرق واستبداد كل واحد بناحيته ، كما حدث فى عهد الطوائف . وهذا العصر الأخير — على ما ساده من فوضى وتفرق — هو الحالة الطبيعية المميزة للتاريخ الإسبانى عن غيره من تواريخ الشعوب .

واعتمد أمراء الأندلس أول الأمر على أجناد العرب والبربر ، ثم فرضوا على النواحى البعوث[٢] ، واستخدموا الصقالبة ، ثم قلب المنصور نظام الجيش كله واستقدم جماعات ضخمة من بربر إفريقية ، فنفر منهم الأندلسيون نفوراً شـــديداً [٣] ، فلم تكد حياته تنتهى حتى بدأ الضرام يتبدى من خُلل الرماد ، وما هى إلا سنوات حتى وقعت الفتنة الكبرى وانقسم جيش البلاد ثلاث طوائف هى العرب والبربر والصقالبة[٤] ، واستقل كل وال بناحيته وانحازت إليه من الجيش قطعة من بنى جنسه : استقل بنو عباد بناحية إشبيلية ، وجماعات البربر بنواحى الجنوب فى كور إلبيرة (غرناطة) ورُندة

---

(١) انظر عن ذلك كتاب : ORTEGA Y GASSET, *La Espana invertebrada*, Madrid.

(٢) ابن عذارى : « البيان » ج ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ .
ابن القوطية : « افتتاح » ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون : « العبر » ، ج ٢ ، ص ٥٥٦ و ج ٣ ، ص ٢٣٧ .
ابن عذارى : « البيان » ، ج ١ ، ص ٢٥٠ و ج ٢ ، ص ٢٥٨ — ٢٥٩ و ٢٩٨ — ٢٩٩
النويرى : « نهاية الأرب » (طبعة جسبار ريميرو ، مدريد ١٩١٧) ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

DOZY, *Musulmans d'Espagne*, II, pp. 230-231.

وتاكُرُنا والجزيرة الخضراء ، ولجأ الصقالبة العامريون إلى شرق الأندلس واعتصموا فى إقليمى مرسية ، وبلنسية ومنها امتدوا فيما بعد إلى الجزائر الشرقية (البليار) ، أما ناحية طليطلة وبطليوس فقد انفرد بالأمر فيهما أسرتان من قدماء بربر الأندلس الذين أخذوا طابعاً أندلسياً بطول المقام وهما أسرتا بنى ذى النون وبنى الأفطس ، واستقل بيت بنى هود بإقليم الثغر الأعلى وهو سرقسطة وما حولها . وابتدر الفرصة نفر من صغار القواد اعتصموا فى نواح صغيرة متفرقة هنا وهناك ، أهمهم معن بن صمادح الذى انفرد بالمرية(١) .

زوال خلافة قرطبة وآثاره :

وهكذا تفرقت وحدة الأندلس الإسلامى فى سنوات قليلة ، وفشلت كل المحاولات التى بذلت لإعادة الوحدة وإقامة صرح الخلافة الأموية من جديد . وقد شهدت قرطبة خلال السنوات التى أعقبت وقوع الفتنة خلفاء صغاراً اعتمد بعضهم على البربر وبعضهم على الأندلسيين ، وحاول كل منهم إقرار الأمر لنفسه دون جدوى ، وانتهى الأمر بأن أعلن أبو الحزم بن جهور فى نوفمبر سنة ١٠٣٠ نهاية الخلافة فى قرطبة ، وخرج هشام المعتد آخر خلفاء ذلك البيت الأموى المجيد ناجياً بنفسه إلى لاردة ، حيث أقام خاملا فى ظل سليمان بن هود صاحب سرقسطة(٢) .

وقد وقعت هذه المأساة والأندلس الإسلامى فى أوج تطوره الاجتماعى والثقافى ، فقد كانت جهود البيت المروانى فى توحيد عناصر السكان قد بدأت تؤتى ثمرها من منتصف حكم الناصر ، أى من بداية الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى (التاسع الميلادى) ، فظهر الشعب الأندلسى الفريد بصفاته الخاصة المميزة ، وكان مزاجاً من العرب والبربر والإيبيريين الرومان

---

(١) عبد الواحد المراكشى : « المغرب » ، (القاهرة ، ١٩١٤) ، ص ٤٠ وما يليها .
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، (طبعة بروفنسال ، رباط ، ١٩٣٤) ص ١٦٧ وما يليها .

دق ما كتب حديثاً عن هذه الفترة :
ANTONIO PRIETO Y VIVES, *Los Reyes de Taifas*, Madrid, 1926.

(٢) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .
وانظر أيضاً : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ج ٢ ، ص ١١٤ — ١١٦ .

والقوط ، يتكلم لغة هى خليط من العربية والبربرية والرومانية[١] ويعتز بنفسه وبأندلسيته على من عداه من الشعوب ، ويأنف من هذه السيادة الفكرية التى كان المشرق يحاول بسطها عليه[٢] ، ويأخذ فى الشعر والنثر اتجاهات جديدة لم يعرفها المشرق ، من صنع الموشحات والأزجال[٣] وذلك النثر المرسل الفياض بالصدق والجمال الذى نقرؤه عند عبد الملك بن شهيد وأبى محمد على بن حزم وحيان بن خلف بن حيان ، واختلط فى مدائن الأندلس وأريافه المسلمون والنصارى واليهود على قدم واحدة ، وتداخلت العلاقات بينهم ، وامتزج الشرق والغرب فى هذه البيئة الأوربية . وخفت حدة الخلاف بين إسبانيا النصرانية فى الشمال وإسبانيا النصرانية فى الوسط والجنوب والشرق ، ووقف الأندلس كله على أبواب عصر نستطيع أن نشبهه بعصر الاستنارة (Die Aufklärung) الذى لم تعرفه أوربا إلا بعد ذلك بقرون ، ثم جاءت هذه الفتنة فأوقفت ذلك كله دفعة واحدة وقضت على الآمال التى علقت عليه ، ووقف أهل إسبانيا جميعاً مسلمين ونصارى ينتظرون أن تنجلى الفتنة الطويلة التى أخذت عليهم كل طريق ، وتنكر أمراء الطوائف لكل المثل العليا التى قضى أمراء المروانيين قروناً فى تكوينها ، فعملوا على هدم الوحدة والخلافة وفرطوا فى هذه العصبية الأندلسية التى كادت أن تكون قومية صريحة فى أواخر القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ومدوا أيديهم يطلبون العون من الشرق والغرب ، وفقدوا هذه العزة القومية ، وأضاعوا على إسبانيا فرصة سبق العالم كله إلى النهضة الكبرى .

وكان زوال الخلافة الأموية وتفرق أمر الأندلس الإسلامى داعيين لسلسلة من التطورات فى إسبانيا النصرانية لا تقل مدى عن تلك التى شهدناها فى الأندلس الإسلامى . ذلك أن تفرق أمور المسلمين ووقوع الفتن بينهم بعث النشاط والآمال فى نفوس ملوك قشتالة وليون وأرجون وأكناد برشلونة ،

---

(١) JULIAN RIBERA, *Disértaciones y opusculos,* (Madrid 1928) I,pp. 127-128.

(٢) H. MONÉS, *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 108 sqq.

(٣) A. GONZALEZ PALENCIA, Historia de la literatura arabigo - espanola (2. ed. Madrid, 1945) pp. 113 sqq.

وانفتحت أمام كل منهم السبل لتوسيع سلطانه على حساب الخصم المتهدم ، وكان على عرش قشتالة وليون وجليقية وأشتوريس ملك قوى محارب من ذلك الطراز الصلب الطموح الذى عرفته إسبانيا فى ذلك العصر وعصر الملوك الكاثوليكيين الذى تلاه ، وهو فرناندو الأول ، فبادر ينتهز الفرصة ، واندفع نحو الجنوب الغربى والجنوب الشرق واستولى على سَمّوره Zamora وبازو Viseu وقُلُمّرية Coimbra . وهدد بقواته إمارات الأندلس الأربع الكبرى التى كانت أشبه بالدرع تحمى ما يليها من الجنوب ، وهى : سرقسطة وطليطلة وبطليوس وإشبيلية ، وما زال ينوش بلادها حتى اضطر طليطلة وبطليوس إلى شراء سلامتهما بجزية سنوية تؤديانها إليه(١) .

ثم مات فرناندو فقسمت المملكة بين أبنائه ، ودارت الحرب بينهم على العادة حتى استطاع واحد منهم ، وهو سانشو الملقب بالكبير (١٠٠٠ — ١٠٣٥ Sancho el Mayor) ، أن يستولى على ما بيد إخوته ويعيد وحدة الدولة ، وأصبح ملك قشتالة وليون وجليقية بعد حروب طويلة ، ثم تجرد لحرب المسلمين والفوز بقطع من أراضيهم التى لم تكن لتجد من يدافع عنها(٢) .

وفى أثناء هذه الحروب الطويلة التى دارت بين ملوك إسبانيا النصرانية بعضهم البعض وبينهم وبين المسلمين تربت فى صفوف جيوشهم طائفة من الفرسان ذوى قدرة حربية وصبر وشجاعة وطموح ، وأتيحت لهم الفرصة للتجربة والمران والضراوة ، وستحمل هذه الطائفة عبء الكفاح مع المسلمين إلى جانب ملوكها. والسيد الكنبيطور — مدار حديثنا فى هذا البحث — واحد من ذلك الجيل العفىّ المقاتل من فرسان إسبانيا النصرانية الذى ملأ أرض الجزيرة خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى بأعمال الشجاعة والكفاح والتخريب والدمار(٣) .

---

(١) ANTONIO BALLESTEROS Y BERETTA, *Historia de Espana* (Barcelona, 1920) II. pp. 220 sqq.

(٢) R. MENENDEZ PIDAL, La Espana del Cid (1. ed. Madrid 1929) pp. 117-121.

(٣) لم تعرف إسبانيا النصرانية نظام الفرسان إلا فى زمن متأخر عن زمن قيامه بغيرها من بلاد غرب أوربا ، وقد درج ملوكها على اختيار فرسانهم من بين أولاد المزارعين وصغار =

رودريجو دياذ د بيبار :

والاسم الحقيقى للسيد هو Rodrigo Diaz de Vivar لأنه ولد فى قرية Vivar على تسعة كيلو مترات شمالى برغش ، والمراجع العربية تسميه « لذريق » « ورذريق » أو « الطاغية رذريق » . وكان أبوه Diego Lainez أو Diaz من أصل عريق ، وكان من رجال فرناندو الأول وكان يملك إقطاعيات على نهر دويره . ويُظن أن لذريق ولد فى سنة ١٠٤٥ ، أى بعد زوال الخلافة القرطبية بخمس عشرة سنة(١) .

ولما كان دييجو لاينيذ من أفصال الملك فرناندو فقد دخل ابنه رذريق فى خدمة البيت المالك على عادة أبناء الأفصال فى نظم الأقطاع ، وضمه الأمير سانشو بن فرناندو إليه ورسمه فارساً فى سنة ١٠٦٣ ، وأشركه معه فى الحروب التى قامت بين قشتالة وجيرانها فى ذلك الحين . وكان ألد أعدائها راميرو – أو رُذْمير – ملك أرغون ، وكان قد جعل دأبه مهاجمة إمارة

= الناس ، لا من بين أبناء النبلاء كما كان الحال فى غالة مثلا . غير أنه تكونت مع الزمن طبقة فرسان مرتبطة بحواشى الملوك كان أفرادها يتربون على قواعد الفروسية المعروفة ، ومع ذلك فقد ظل الملوك يدخلون بين فرسانهم النجباء من أولاد الأصاغر ، وكان الفرسان النبلاء يحتقرونهم ويعادونهم . وكان السيد من أبناء الأصاغر ، فلم يكن أبوه دييجو لاينيذ نبيلا ، ولهذا عاداه الفرسان النبلاء وتحزبوا عليه ، وكان لهذا أثر بعيد فى تاريخه كما سنرى . وكان لكل فارس ردفة من أتباعه تسمى la mesnada يدخل فيها الشبان ، الذين سيرسمون يوماً ما فرساناً ، والخدم criados
Cf. SANCHEZ Albornoz, *Estampas de la vida diaria en Léon hace mil anos.*

وعند ما قرب الملك سانشو لذريق وأعلى شأنه أنكر الفرسان النبلاء ذلك وانضموا إلى أخيه ألفونس الذى سيخلفه على العرش باسم ألفونس السادس ، فجعلهم بطانته ، وأوغروا قلبه على لذريق فكانت العداوة التى سنتكلم عنها بين الاثنين .

ومن أكبر أولئك الفرسان النبلاء الذين سيعادون لذريق وسيكون لهم أثر فى تاريخه – وفى تاريخ الحرب بين المسلمين والنصارى فى ذلك العصر كله – « بنو غومس » ، وهم أسرة قشتالية قديمة كانت تملك بلاد كاريون Carrion وصلدانية Saldana وليبانه Liébana وسموره Zamora وكانت قد استعربت أيام المسلمين ودخلت فى ولاء بنى أمية ، ومن هنا كان اسمها بنى غومس ، واحتفظت باسمها بعد أن انضمت إلى ملوك قشتالة بعد سقوط الخلافة ، فصارت تسمى فى النصوص الإسبانية Los Beni Gomez أو Vanigomez ، وأكبر رجالها فى عهد السيد Gonzalo Ansurez

انظر : R. MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* I, pp. 189-190.

(١) MENENDEZ PIDAL, *op. cit.* pp. 127-129.

سرقسطة ، وكانت من أحلاف ملوك قشتالة وليون ، وكانت من قبل تدفع الجزية لأرغون ثم تحولت إلى حلف قشتالة ، فظل رذمير الأرغونى يتحين الفرص لمهاجمة بلادها الشمالية — لاردة ، ووشقة ، وتطيلة — فلما كانت سنة ١٠٦٣ سار فرناندو نحو إشبيلية ، فنهز رذمير الفرصة وهاجم سرقسطة ، فعجل فرناندو بإرسال ابنه سانشو لغوثها ، فسار ومعه رذريق . وعند بلدة Graus — أو Grodos دارت رحى معركة حامية بين قوات المقتدر أحمد بن هود والقشتاليين — وفيهم السيد — من ناحية وبين راميرو صاحب أرغون من ناحية أخرى ، وانتصر القشتاليون انتصاراً كاملا حتى ليقال إن راميرو قتل فى المعركة . وهكذا نرى أن رذريق حارب إلى جانب المسلمين فى أول معركة يذكرها له التاريخ[١] .

وبعد ذلك بعامين (١٠٦٥) توفى فرناندو الأول ملك قشتالة وليون بعد أن قسم أملاكه بين أبنائه الثلاثة : سانشو وهو صاحب السيد الذى ذكرناه وقد أعطاه مملكة قشتالة ، وألفونسو سادس ملوك ليون المسمين بهذا الاسم ، وغرسية وقد أعطاه جليقية ، أما بنتاه Urraca وإلبيرة Elivra فقد أعطاهما إقطاعيات[٢] .

ظهور أمر رذريق :

وبدأت الحرب بين الإخوة بعد موت أبيهم مباشرة ، واستطاع سانشو أن يهزم أخويه غرسية وألفونسو ويجردهما من أملاكهما . وكانت الحرب بين سانشو وألفونسو عنيفة حامية انتهت بهزيمة الأخير ووقوعه أسيراً بيد أخيه عند Golpejera فى سنة ١٠٧١ . وكان لرذريق فى هذه المعركة دور عظيم ، بل كان هو صاحب الفضل فى النصر ، فكان هذا أول الخصومة الطويلة بينه وبين ألفونسو[٣] ، وهى خصومة ستدور حولها حوادث السنوات التالية كلها . وقد قبل سانشو أن يطلق سراح أخيه ألفونسو على

---

(١) R. M. PIDAL : Op. cit. pp. 143-146.

(٢) ,, ,, ,, : Op. cit. pp. 154-155.

(٣) راجع عن دور السيد فى هذه المعركة :

DOZY, *Recherches*, II, p. 105-106.

شريطة أن يخرج من بلاده ، فاختار أن يقيم عند المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستقبله هذا الأخير استقبالا حسناً ، وعاش عنده مكرماً حتى سنة ١٠٧٢ . وخلال هاتين السنتين اللتين قضاهما ألفونس فى هذا البلد الإسلامى ، ألم بكل أحوال البلد وعرف ما كان ينتابه من عوامل الضعف ، وسينتفع بهذه المعلومات عندما يصير إليه عرش قشتالة وليون كما سنرى ، إذ سيجعل دأبه الاستيلاء على طليطلة مكافأة لأهلها على ما آووه[١] .

وعلا نجم رذريق فى بلاط قشتالة ، وأقامه سانشو « فارس » الجيش El Alférez[٢] ، أى القائد العام[٣] ، وظهرت فروسيته فى مبارزة عنيفة مع فارس نَبَرِّىّ ، وقد قيل إن انتصاره فى هذه المبارزة كان السبب فى تلقيبه بال campeador الذى عربه المسلمين إلى الكنبيطور أو القمبيطور ، وحاول دوزى أن يفسر لفظ « كمبيادور » بأنه البطل Champion ، ولكننا وجدنا فى الجزء الثالث من البيان المغرب لابن عذارى التفسير الصحيح للفظ ، إذ قال : « القنبيطور ومعناه صاحب الفحص واسمه لذريق » ، فعرفنا أن Campeador من campus وهو الفحص ، ومقابل اللفظ فى اللاتينية campidoctus ومعناه قائد الغارات فى بلاد الأعداء[٤] .

العداء بين رذريق وألفونسو السادس (ابن رُدْمير) :

وفى سنة ١٠٧٢ قُتل سانشو الثانى عند أسوار سموره Zamora ، ولم يجد رجال قشتالة وليون بدا من أن يستدعوا أخاه ألفونس من منفاه ويولوه

---

(١) LÉVI - PROVENÇAL, *Alphonse VI et la prise de Tolède*. pp. 117-118

(٢) Alférez لفظ إسبانى من أصل عربى هو « الفارس » وكان يطلق على حامل لواء الملك وقائد قواته ، ويسمى فى اللاتينية armiger . وكانت العادة أن يكون للمملكة فارس واحد ، أى أن سانشو جعل رذريق فوق فرسان قشتالة وليون جميعاً ، وكان ذلك أيضاً من أسباب كراهة فرسان قشتالة لرذريق .

(٣) LÉVI - PROVENÇAL, *Le Cid de l'histoire*.

(٤) راجع مناقشة دوزى لأصل هذا اللفظ فى :

DOZY, *Recherches*, II. pp. 56 sqq.

وقد كان ماسديو قد ذهب إلى أن لفظ كمبيادور فى إسبانية القرن الثانى عشر كان يحمل معنىً محطا ، فأثبت له دوزى (ص٥٧) خطأ رأيه ، وأورد له أبياتاً من شعر Gonzalo de Berceo =

على العرش . وكان رذريق كبيرَ رجال الدولة ، ولم يكن له بد من استدعاء خصمه ألفونس والدخول فى خدمته ، وقد فعل ذلك راغماً ، لأن القانون كان يقضي به . وقد أراد رذريق أن يشعر ألفونس بسلطانه قبل أن يلى العرش ، فاشترط أن يحلف يميناً ببراءته من الاشتراك فى تدبير مقتل أخيه[1] ، فأقسم ألفونس بين يديه فى جمع حافل من رجال مملكة ليون وقشتالة ، مما زاده نفوراً من رذريق . ولهذا فإنه لم يكد يستقر على عرش قشتالة وليون فى سنة ١٠٧٢ حتى عزل رذريق من قيادة الجيش وولى مكانه Garcia Ordonez الذى تسميه المراجع العربية « غرسية ذا الفم المنبوز » ،

= فى قصيدته المسماة : Vita de Santo Domingo de Silos التى ألفت فى سنة ١٢٢٠ يفهم منها أن لفظ كمبيادور كان معناه الفارس النبيل ، وهذه الأبيات هى :

El Rey Don Garcia de Nagera Sennor,
Fijo del Rey Don Sancho, él que dicen Mayor,
Un firone caballero, noble campeador,
Mas para sant Millan podrie ser meior.

ثم مضى بعد ذلك يستقصى أصل اللفظ فى اللغات الجرمانية ، وربطه بالأصل التيوتونى camph وأوغل فى ذلك إيغالا غريباً ، وربطه بلفظ champion الفرنسى و champion البروفنسى و champione الإيطالى (ص٥٨ – ٥٩) . أما منندذ بيدال ، فقد ذهب – على عادته فى تفخيم السيد – يلتمس أصل اللفظ فى اللغة اللاتينية ، واستند إلى أبيات وردت فى أنشودة لاتينية وضعت فى مدح السيد تقول :

"Hoc fuit primum singulare bellum
Cum adolescens devicit Navarrum
hinc *campi-doctor* dictus est majorum ore virorum".

(راجع ص ١٧٥) من كتابه المشار إليه .

وقد حل نص ابن عذارى الذى ذكرناه (انظر البيان المغرب لابن عذارى ج ٣ ، طبعة ليڤى پروڤنسال ، باريس ١٩٣٠ ، ص ٣٠٥) هذا الإشكال . ولكن منندذ بيدال رفض الأخذ به على وضوحه ، وظل يتمسك إلى الآن بالأصل اللاتينى للقب السيد .

ويذهب التاريخ اللاتينى للسيد المسمى Historia Roderici إلى أن الفارس الذى غلبه السيد واستحق بغلبه إياه لقب القمبيطور كان فارساً مسلماً من أهل « مدينة سالم » يسمى الحارث Hariz من رجال المقتدر بن هود .

Cf. : Menéndez Pidal, op. cit. pp. 175-176.

(١) أقسم ألفونسو اليمين على براءته من تدبير قتل أخيه فى كنيسة سانتا جاديا Santa Gadea على مقربة من برغش فى نوفبر أو ديسمبر ١٠٧٢ ، ويحيط القصص الشعبى =

وقد أحفظ ذلك رذريق وبدأت بينه وبين غرسية عداوة ستدوم حتى موت غرسية هذا .

الخلاف بين القشتاليين والليونيين :

وكان اتحاد ليون وقشتالة تحت تاج واحد أمراً جديداً على الإسبان إذ ذاك ، وكانت عرى ذلك الاتحاد واهية لا يحول بينه وبين الانتثار إلا شخص الملك الجالس على العرش . وكانت المملكة أول الأمر فى ليون ، وكان أصحابها أكبر ملوك إسبانيا النصرانية ، ولم تكن قشتالة إلا كونتية صغيرة إلى جوارها ، فلما قسم فرناندو الأول أملاكه بين أبنائه أعطى كونتية قشتالة لسانشو ، فضم إليه فرسانها — وفيهم رذريق (وهو قشتالى من ڤيڤار كما قلنا) — فلما صار إلى العرش أصبح فرسانه القشتاليون أعلى من فرسان ليون ونبلائها مرتبة ، فنفر من ذلك أولئك الأخيرون ، وأخذوا يناوئون سانشو ، وتولى زعامتهم ألفونس أخو سانشو ، وما زال العداء بين الجانبين حتى وقعت الحرب وانتصر القشتاليون على الليونيين فى معركة « جولپيخار » التى ذكرناها ، ونفى ألفونس إلى طليطلة ، فتم بذلك انتصار القشتاليين إلى حين .

وكانت لسانشو وألفونس أختان ورثت كل منهما عن أبيها كونتية ، وأهم الأختين هنا « أورّاكة Urraca » وكان أبوها أعطاها سمورة ، وكانت شديدة الميل إلى أخيها ألفونس ، فآزرته على أخيه سانشو وآوته عندها بعد انهزامه ، ثم شفعت له عند أخيه حتى أخرجه من السجن وسمح له بالمسير إلى طليطلة منفياً . وتزعمت أوراكة بعد ذلك حزب الليونيين الكاره لأخيها الملك سانشو زعيم القشتاليين (وفيهم رذريق) ، وما زال الأمر يسوء بينهما حتى قرر سانشو الاستيلاء على سمورة من أخته ، فسار إليها وحاصرها ، فإذا هو على الحصار إذ أصابه سهم أصماه فى السابع من أكتوبر ١٠٧٢ م . ولا شك أن لأوراكة يداً فى قتله . وكانت نتيجة ذلك أن عاد ألفونس إلى

= الإسبانى هذا الحادث بحشد من الأساطير ، ومن ذلك أن السيد قال لألفونسو : « وإذا كنت كاذباً فى يمينك فسيميتك الله صريعاً على يد واحد من أتباعك يخونك كما خان ڤيليدو أدولفو أخاك الملك سانشو وقتله ! » فقال ألفونسو وفرسانه الاثنا عشر : « آمين ! »

Cf. : Prim. Cron. Gen. p. 519a.

ليون وتوج ملكاً على قشتالة وليون كما رأينا ، فانتصر حزب الليونيين من جديد ، وكان على رذريق بعد ذلك أن يقود جماعة القشتاليين الغاضبين على ألفونسو[١] .

ومن الظريف أن بعض مؤرخي إسبانيا النصرانية كانوا يدهشون من هذا الميل المفرط الذي كانت أوراكة تبديه نحو أخيها ألفونسو ، حتى عثر ليفي پروفنسال أخيراً على نص عربي يؤكد وجود علاقة مريبة بين الاثنين[٢] ، فانكشفت بذلك ناحية غامضة من نواحي تاريخ إسبانيا النصرانية ، وتبين أن ما كان المؤرخون يزعمونه من أن نصارى الإسبان كانوا يمتازون على مسلميهم من أهل ممالك الطوائف بسلامة الخلق لا يقوم على أساس ، إذا أن ملوك الطوائف أسرفوا على أنفسهم بالفعل في كل ميدان ، ولكن إسرافهم لم يبلغ مبلغ ألفونسو وأخته .

ولم ينصرف رذريق من بلاط ألفونسو بل ظل في خدمته ، ويبدو أن الملك كان راضياً عنه ، لأنه زوجه في يوليو ١٠٧٤ من إحدى بنات خالاته وهي Jimena ابنة Diego Rodriguez كُنْد أبيطْ Oviedo .

وبولاية ألفونسو السادس عرش قشتالة وليون يبدأ تحول جديد حاسم في تاريخ إسبانيا النصرانية ، فقد كانت تعيش إلى الآن منفصلة تماماً عن كنيسة روما من الناحية السياسية ، وكانت العبادة في كنائسها تجري على

---

(١) Prim. Cron. Gen. pp. 503a, sqq.
Dozy, Recherches, II. p. 106
R. Menéndez Pidal, op. cit. pp. 195 sqq.
والمراجع المعطاة في هذا المرجع الأخير .

(٢) هذا النص لابن الصيرفي الغرناطي المتوفى في أوريوله سنة ١١٦١ م . وكان كاتباً للأمير أبي محمد بن تاشفين ، وهو : ويذكر أن أذفونش بن فرذلند – لعنه الله ! – زنى بأخته أراكة ، فجمع بين النصرانية والمجوسية ، ثم طلب إلى أحبار دينه المغفرة ما وافق ، فحملوه على قصد الكنائس الفاضلة والتعبد ، أخزاهم الله ولعنهم ! » . هذا وقد كان الراهب خوان خيل السموري Juan Jil de Zamora قد ذكر في كتابه De praeconüs civitatis Numantinae (= مدائح بلدة سمورة) قصة ألفونسو السادس وأخته أراكه وذكر أنه تزوجها بالفعل بشهادة نفر من نبلاء مملكته !

Cf. : Lévi-Provençal y R. Menéndez Pidal, *Alfonso VI y su hermana Urraca.* Al-Andalus XIII (1948) fasc. 1. pp. 157-167.

طقوس محلية إسبانية عرفت بالقوطية أو المستعربية أو الطليطلية ، فلما جاء ألفونسو — وكان متزوجاً من أميرة فرنسية هى Constance ابنة Robert de Bourgogne — انفتح باب الصلات مع غرب أوربا والبابوية وبدأت المراسلات بين ألفونسو والبابا جريجورى السابع ، وانتهت بقبول ألفونسو السادس استبدال الطقوس المستعربية بالطقوس الرومانية ، وفتح باب إسبانيا أمام رهبان دير كلونى ، فوفدت جماعات منهم إلى قشتالة وليون ، وبدأ هذا التيار الفرنسى الرومانى الذى سيكون بعيد الأثر فى عودة إسبانيا النصرانية إلى محيط الحضارة الغربية بعد طول انفصال . وقد ذهب مؤرخ رذريق الأستاذ مننذذ پيدال إلى أن رذريق كان من المعارضين فى هذه السياسة ، لأنها تنتقص من سيادة إسبانيا وتدخلها فى تبعية الكنيسة الرومانية[1] .

* * *

رذريق فى خدمة بنى عباد :

وكانت الإمارات الإسلامية المصاقبة لقشتالة وليون — وهى طليطلة وبطليوس وإشبيلية — تؤدى لها جزية سنوية ، وكانت العادة أن يندب الملك أحد كبار رجاله لقبضها ، فندب ألفونس رذريق للقيام بهذه المهمة فى أواخر سنة ١٠٧٩ ، فوفد إلى إشبيلية فى لمة من الفرسان على بلاط المعتمد ابن عباد .

وكانت الخصومة على أشدها فى ذلك الحين بين المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وممثل الطائفة العربية فى ذلك العصر الملىء بالفتن ، وبين عبد الله بن زيرى حفيد باديس بن حبوس آخر أمراء غرناطة من بيت بنى زيرى البرابر الصنهاجيين . وكان عبد الله — على ضعفه — يتزعم حزب البربر ويستعين فى حرب بنى عباد بجنود من النصارى يرسلهم إليه ملك ليون مقابل مال يؤديه إليه ، وقد عرفنا ذلك من كتاب فريد فى بابه اسمه « التبيان عن الحادثة الكائنة على غرناطة » عثر عليه الأستاذ ليڤى پروڤنسال وتبين أنه مذكرات هذا الأمير عبد الله ، دونها بيده بعد خلعه ونفيه إلى أغمات فى المغرب ، وقص فيه تاريخ

(١) P.M. Pidal, op. cit. pp. 255 sqq.

غرناطة فى ذلك العصر المضطرب ، وحكى قصة ذلك البيت المغربى ، ودافع عن نفسه وأهله بعد ضياع ملكه فى صراحة وصدق يجعلان من مذكراته تلك قطعة فريدة من الأدب ووثيقة طريفة من وثائق التاريخ[١]. وقد ذكر عبد الله فى سياقها كيف أن خوفه من جاره ابن عباد هو الذى دفعه إلى الاستعانة بألفونسو وطلب المدد الحربى منه ، فأرسل إليه جماعة من الفرسان على رأسهم قائد جيوشه غرسية أوردونييذ Garcia Ordonez خصم رذريق اللدود .

وتشاء المصادفات أن تقع بين المعتمد وعبدالله فى ذلك الحين مناوشات تكون نتيجتها خروج غرسية أوردونييذ على رأس قوة بربرية لمغاورة إشبيلية ، فعجل المعتمد بإرسال قوة على رأسها رذريق نفسه ، والتقى الفارسان القشتاليان الخصمان عند « قبره » يحارب كل منهما لحساب أمير مسلم . ودارت بينهما معركة حامية انهزم غرسية فيها انهزاماً قبيحاً ، ووقع فى أسر خصمه ، وظل فى قبضته ثلاثة أيام ، ثم أطلق سراحه فعاد مهيناً محنقاً إلى برغش ليشكو إلى ملكه ألفونسو ما فعله به رذريق ، واجتهد فى إيغار نفسه عليه ، مما أحنق ألفونسو على تابعه . أما رذريق فقد عاد مظفراً إلى إشبيلية وقضى فيها ردحاً من الوقت ثم عاد إلى برغش سنة ١٠٨٠ ، فجعل الملك يحاسبه على تلك الأخطاء التى ارتكبها : فقد حارب من غير إذنه ، واعتدى على بلاد فى حماية متبوعة ، وأهان إخوانه وقتل منهم ، وقبض من ابن عباد لنفسه مالا ، وكلها مخالفات شديدة لتقاليد الأفصال مع متبوعيهم . وبعد ذلك بقليل ارتكب رذريق مخالفة أخرى : فخرج دون إذن سيده وحارب جماعة من جند

---

(١) كان يقيم فى بلاط الأمير عبد الله بن زيرى فى ذلك الحين عدد من أكابر فرسان مملكة قشتالة وليون ، مثل غرسية أوردونييذ هذا وكان صاحب نخرة وفرتون سانشذ Fortun Sanchez زوج إحدى أميرات نبره Navarra ولب سانشذ Lope Sanchez أخى فرتون المذكور ودييجو پيريذ Diego Pérez ، وكلهم من رؤساء الحزب الليونى فى بلاط ليون وقشتالة . ولا ندرى السبب فى اجتماعهم كلهم عند الأمير الصنهاجى فى ذلك الحين ، ويعلل مننذذ پيدال ذلك بأن ألفونسو السادس بثهم هناك ليرقبوا أعمال المعتمد صاحب إشبيلية بسبب اتساع رقعة دولته بعد استيلائه على قرطبة ومرسية وانتصاره على رامن كند برشلونة الملقب برأس الأسطب Ramon Capeza de Estopa ، وذلك تعليل غير مقنع .

Cf. : R.M. Pidal, op. cit. 1, p. 2 87.

طليطلة المسلمين عند غرماج Gormaz على نهر دُوَيْرُه ، فكانت نتيجة ذلك أن غضب ألفونسو عليه وقرر نفيه من بلاده ، وكان ذلك عقوبة قاسية ، إذ كان يتعين على الفَصَل المنفى ترك أملاكه وبلاده والخروج مع أتباعه ومحاولة كسب عيشه بالخدمة عند أى سيد آخر .

رذريق فى خدمة بنى هود :

وهكذا خرج رذريق فى سنة ١٠٨١ منفياً من بلاده ليبحث له عن سيد جديد ، وكانت معه قطعة من أتباعه من الفرسان تبلغ نحو ٣٠٠ فارس . وعرض خدماته على كوند بَرْجَلُونه Ramon Berenguer فرفض ، فيمم شطر سرقسطة وعرض نفسه على أميرها يوسف بن هود الملقب بالمؤتمن فقبله ، وبهذا يبدأ فصل جديد من حياة ذلك المغامر القشتالى ، فترة طويلة مليئة بالحوادث والمغامرات لحساب بنى هود تارة وحساب نفسه تارة أخرى ، وهذه الفترة هى التى جعلت منه فيما بعد بطل أساطير وملاحم .

وكانت أمور ممالك الطوائف تسير خلال هذه السنوات سيراً سيئاً ، فقد كانت الحروب على أشدها بين إشبيلية وغرناطة ، وكان المعتمد قد تمكن من الاستيلاء على مرسية فاتسعت رقعة بلاده اتساعاً أضعفها وقرب أيامها ، لأن هذا الذراع الذى امتد لها حتى وصل شرق الأندلس عند مرسية فرض عليها تبعات كثيرة فى الدفاع والحماية لم تكن تستطيع النهوض بها ، ثم إنه أوقعها فى منازعات مع جيران مرسية مثل أبى مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية وجاره أبى مروان بن رزين صاحب « السَّهْلَة » ، وزادت مخاوف أصحاب غرناطة من البربر ، فازداد تهالك عبد الله بن زيرى على ألفونسو السادس ، وتخوف هذا الأخير من إشبيلية وأميرها ، واستقر عزمه على مهاجمتها والفراغ من أمرها جملة .

ولم تكن أحوال دولة بنى ذى النون أصحاب طليطلة بأحسن من ذلك : كان على رأسها يحيى بن إسماعيل بن ذى النون الملقب بالمأمون ، وكان مزاجاً غريباً من الفضيلة والرذيلة ، يتردد بين النشاط الواسع والخمول الغريب من حين إلى حين ، وكان شديد الانصراف إلى لذاذاته حتى أسرف فى ذلك إسرافاً

أصبح مضرب المثل وحتى أفنى أموالا جليلة فى مجالس أنسه وأعراسه ومبانيه(١)، غير أنه كان إلى جانب ذلك سياسياً قادراً استطاع السيطرة على كبار رجال أهل مملكته ، وخاصة بنى الحديدى ، وكانوا أسرة قوية تتولى الوزارة والحجابة فى دولة طليطلة . وكان المأمون يتودد إلى ألفونسو السادس ويداريه ، وكان هذا يبره ويذكر له يده عليه ، إذ آواه عندما كان منفياً . وقد استنفد المأمون قواه فى حرب جاره سليمان بن هود صاحب سرقسطة ، ولا زال كل منهما يغزو أرض الآخر ويعيث فيها ويستعين عليه بالنصارى حتى أشرفت الدولتان على الانهيار فيما بين ٤٣٥ و ٤٣٨ هـ / ١٠٤٣ — ١٠٤٦ .

وقد توفى المأمون بن ذى النون فى ذى القعدة ٤٥٧ / ١٠٦٤ وخلفه حفيد له يسمى يحيى أيضاً وتلقب بالقادر ، وكان آية فى الضعف وسوء الرأى وخطل السياسة : اختلف مع بنى الحديدى وساء مركزه فى طليطلة لأشهرٍ من ولايته ، وتطلع ألفونسو للاستيلاء على هذا البلد العظيم وما حوله ، ونصب نفسه قيما على القادر ، وفرض عليه جزية ثقيلة اضطر فى جمعها إلى اعتصار أهل طليطلة ، فكرهوه واشتد سخطهم عليه ، وبدا بوضوح أن طليطلة صائرة إلى يد ألفونسو . وهكذا كان النصارى يزحفون إلى هذا المعقل الحصين وأمراء الطوائف لاهون عن الأمر ، منصرفون إلى ما شغلهم من المنافسات فيما بينهم ، وما استنفد قواهم من النهم إلى لذاذات العيش والتهالك على المتاع(٢).

وقد أدى رذريق خلال السنوات الخمس الأولى من خدمته لبنى هود خدمات كبيرة لهم ، وحارب لحسابهم أرغون وبرجلونة ، وأفاد هو من ذلك فوائد عظيمة . فقد تحرر من قيود التبعية وأصبح فارساً حراً يعمل لحساب نفسه ، وأطلق لنفسه العنان فى شرق الأندلس كله ، فاتسعت ثروته وكثر

---

(١) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ٢ .
ابن عذارى : « المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ وما يليها .
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

(٢) انظر عن ذلك كله : ابن بسام : « الذخيرة » ، قسم ١ ، ج ١ ، ٢ .
ابن عذارى : « البيان المغرب » ، ج ٣ ، ص ٢٧٩ وما يليها
ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ١٩٧ وما يليها .

أتباعه بمن انجفل إليه من المغامرين والفرسان والزعار ما بين مسلمين ونصارى، وأصبح أشبه ما يكون « بالكوندوتييرى » الإيطاليين الذين كان الواحد منهم يرأس جماعة من الجند ويبيع خدماته لمن يدفع الثمن ، ويقضى حياته فى الحرب والنهب والتخريب[١] .

رذريق يتطلع إلى بلنسية :

وكانت بلنسية فى ذلك الحين على حال من الضعف والعجز عن حماية نفسها أطمعت جيرانها فيها : كان قد انتزى بها رجل من أحفاد ابن أبى عامر يسمى عبد العزيز ، دخل فى طاعة المأمون بن ذى النون ليحمى نفسه ، وخلفه ابنه أبو بكر مروان بن عبد العزيز ، فظل على طاعة طليطلة ، وزاد حال البلد سوءاً ، وطمع فيه بنو هود أصحاب سرقسطة ، وكان السيد أكبر قوادهم ، فتنبه لهذه الناحية وطمع فى بلنسية[٢] .

وعندما توفى المأمون بن ذى النون فى ١١ ذى القعدة ٤٦٧ هـ . / ١٠٧٤م خلفه على طليطلة حفيده يحيى الملقب بالقادر ، وكان غاية فى الضعف وقلة

---

(١) قال ابن بسام : « ولما أحس أحمد بن يوسف بن هود المنتزى إلى وقتنا هذا على ثغر سرقسطة بعساكر أمير المسلمين تقبل من كل حدب ، وتطلع على أطرافه من كل مرقب ، آسد كلباً من أكلب الجلالقة يسمى برزريق ويدعى بالكنبيطور ، وكان عقالا وداء عضالا ، له فى الجزيرة وقائع ، وعلى طوائفها بضروب المكروه اطلاعات ومطالع . وكان بنو هود قديماً هم الذين أخرجوه من الخمول ، مستظهرين به على بغيهم الطويل وسعيهم المذموم المخذول ، وسلطوه على أقطار الجزيرة يضع قدمه على صفحات أنجادها ، ويركز علمه فى أفلاذ أكبادها ، حتى غلظ أمره ، وعم أقاصيها وأدانيها شره » .

انظر ص ٩ من نص ابن بسام الذى نشره دوزى فى نهاية الجزء الثانى من أبحاثه .

(٢) Dozy : Recherches, II. p. 115

وقد أثنى ابن الخطيب على ابن عبد العزيز بقوله : « أحد رجال الكمال بالأندلس ، وعين بلنسية التى بها تبصر ، ولسانها الذى تسهب به وتختصر . وكان طاغية الروم (يريد رذريق القمبيطور) الممارس لرؤساء أهل الأندلس بكثرة مداخلتهم إياه فى أمر بلادهم يقول إذا جرى ذكره : رجال الأندلس ثلاثة ، فيعد منهم ابن عبد العزيز . . . وكانت آثار عبد العزيز على الجملة جميلة ، وكان ثانياً لأبى الحزم بن جهور وشبيهاً له فى الجهة الشرقية ، حمل جهدته على سداد ، وقام بها بحال من الاستبداد . . . وكانت وفاته ببلنسية فى العشر الأواخر من جمادى الأخيرة سنة ١٠٦٤/٤٥٦ » . ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٣٣ .

الحيلة وسوء التدبير كما قلنا ، يذهب ابن الخطيب إلى أنه « كان يصاحبه مرض درن قلما ينعش منه »[١]. ووقعت النفرة بينه وبين كبار أهل طليطلة فلم يجد ما يؤيد به نفسه إلا الانضواء الكامل فى طاعة ألفونسو السادس، وكان هذا يعرف طليطلة حق المعرفة من أيام لجوئه إليها على ما قلنا ، فلما رأى هذا « القادر » العاجز بين يديه اجتهد فى الاستيلاء على البلد .

سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس :

وساءت حال القادر فى طليطلة ، وأحس أن كبار أهلها لا يرضون عنه ، فاستعان بنفر من الأشرار عليهم ، ودبر مصرع كبيرهم أبى بكر بن الحديدى، وظن أن الأمر خلا له بذلك ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن أمره ازداد سوءاً ، فعجل بالهرب من البلد إلى حصن قَوْنَقَه Cuenca تاركاً إياه ينعى من بناه . « وأقام أهل طليطلة بعده أياماً كالسائمة المهملة ليس عليهم أمير ، ولا فيهم بالصواب مشير » ، كما يقول ابن الخطيب ، واستقر بهم الرأى على استقدام المظفر بن الأفطس صاحب بطليوس ، فأقبل إلى البلد وأقام فيه أشهراً ريثما جمع ما عثر عليه من ذخائر بنى ذى النون ، ثم ترك طليطلة وعاد إلى بطليوس محملا بالأسلاب ! وأتيحت للقادر الفرصة من جديد ، فعاد إلى طليطلة بمعاونة ألفونسو السادس وسام أهلها سوء العذاب ، « واستقر بها شر استقرار ، واقتضاه الطاغية الوعد ، وسلبه الله النصر والسعد ، وهلكت الذمم ، واستؤصلت الرمم[٢]».

وهكذا تمهد طريق طليطلة أمام ألفونسو السادس ، وكان يرقبها عن كثب وهو لا يشك فى أنها صائرة إليه . فلما وجد هذا « القادر » أعجز من أن يستقر فى البلد ، وأحس أن أحداً لن يمنعها منه إذا طلبها ، تقدم فطلب من القادر أن ينزل له عن طليطلة فى مقابل تأييده إياه فى الاستقرار على بلنسية ، وكانت داخلة — من الوجهة النظرية — فى زمام طليطلة . وتم هذا الاتفاق المنكود بين الرجلين ، واستولى ألفونسو على قلب معاقل الأندلس

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢٠٩ .

الإسلامى وأهم دويلاتها بأيسر مؤونة ، وامتدت رقعة مملكة ليون وقشتالة بهذه الخطوة من شمالى نهر تاجه إلى ضفاف الوادى الكبير . ومن أكبر دلائل هوان أمر مسلمى الأندلس فى ذلك الحين ما ذكره ابن الخطيب من أن أهل طليطلة عارضوا فى إسلام البلاد لألفونسو ، « فلما بلغ الصبر بهم مداه خرجوا إلى محلته ،(محلة ألفونسو) ، فأدخلوا المضرب الذى كان له ، بعد حجاب غليظ وإذلال كثير ، فألفوه يمسح عينيه من أثر النوم ، فقال لهم : « إلى متى تتخاذلون ، وماذا تصنعون ؟ » فقالوا : « لنا بغية ، وفى فلان وفلان أمنية ! » ، وسموا له جملة من ملوك الأندلس ، فتهافت وسخر بهم ، ودعا بإرسال من سموه ، فحضروا وكلهم يؤدى خضوع مُرْسله ، وينوب فى لثم يده ، ويتوسل بهديته ، فخرجوا من عنده وقد سقط فى أيديهم . ولثلاثة أيام من ذلك المجلس خلوا بينه وبين البلد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله[١] » ، وكان ذلك فى منتصف المحرم ٤٧٨ هـ . / مايو ١٠٨٥ م[٢] .

وقد ارتج الأندلس الإسلامى لهذه الكارثة رجة عنيفة ، وشعر الأندلسيون أن أمر الأندلس كله إلى ضياع ، فقد وصلت حدود قشتالة إلى أجواز قرطبة ، وأصبح مصير بطليوس وإشبيلية فى الميزان ، وأطل ألفونسو على شرق الأندلس كله ، وتجرد للقضاء على إمارات الطوائف كلها ، وريع أهل الأندلس وقال شاعرهم عبد الله بن فرج اليحصبى المشهور بابن العسال :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم ... فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط ؟[٣]

الأندلسيون يستنجدون بالمرابطين :

وارتفعت الصيحة فى الأندلس ، وتحرك الفقهاء يرجفون بهول المصيبة ، وينذرون بالخطر الداهم . وكان أمر المرابطين قد استقام فى المغرب الأقصى

---

(١) ابن الخطيب : « أعمال الأعلام » ، ص ٢١٠ .
(٢) المقرى : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ .
(٣) المقرى : « نفح الطيب » ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

إذ ذاك ، فما زال الفقهاء يحضون أمراء الأندلس حتى جعلوهم يستنجدون بيوسف بن تاشفين ، فبادر بالعبور إلى الأندلس فى ربيع سنة ١٠٨٦ (٤٧٨ هـ) ، وسار بجموعة للقاء ألفونس . وأدرك هذا خطورة الموقف ، فبعث يستدعى أنجاد فرسانه ويجمّع جنوده ، واستدعى القوة التى كان قد رصدها ببلنسية لحماية القادر بن ذى النون ، وكان يقودها فارس ليونى كبير يسمى Alvar Hanez تسميه المراجع العربية البَبْرهانس . وشعر القادر بعد انصراف حماته من النصارى ألا حول له ولا طول ، وبعث يستنجد ببنى هود . وهنا سنحت لرذريق الفرصة التى كان ينتظرها منذ زمن طويل ، فاتفق مع المستعين بن هود على أن يستولى على بلنسية لحسابه على أن تكون الغنائم كلها له ، أى لرذريق . وبدلا من أن يسرع رذريق للوقوف إلى جنب إخوانه القشتاليين والليونيين فى معركتهم الفاصلة مع المرابطين ، فضل أن يغتنم بلنسية . ودارت معركة « الزلاقة » الحاسمة فى ١٥ رجب ٤٧٩ هـ . / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ بين قشتالة وليون من ناحية وجنود الأندلس والمرابطين من ناحية أخرى ، ومنى ألفونسو السادس بأقسى هزيمة عرفها فى حياته ، وقتل من فرسانه آلاف ، وعاد إلى طليطلة مهيض الجناح ؛ كل هذا ورذريق متكالب على بلنسية وكأنه لا يمت إلى إخوانه النصارى بسبب[1] .

بيد أن الكارثة هزت كيانه ، ولم يجد بداً من الإسراع إلى ملكه ومتبوعه القديم ألفونسو ، فذهب إليه وصالحه فى أواخر ١٠٨٦ ، فقبله وأقامه على رأس قوة قشتالية تقوم بمغازاة المسلمين فى شرق الأندلس ، فاختار أن يوجه نشاطه ناحية بلنسية وإقليمها . وهكذا عاد رذريق إلى هذا البلد المسكين يعمل لحساب سيد جديد هو ألفونسو السادس ، وهنا تبدأ فترة الأوج فى حياة هذا القائد الذى لا يكل ولا يقنع .

---

(١) المراجع عن موقعة الزلاقة كثيرة ، انظرها فى آخر مقال « الزلاقة » فى دائرة المعارف الإسلامية بقلم ليڤى پروڤنسال ، وانظر :

C.F. Seybold, Die geographische Lage von Zallaka und Alarcos. Revue Hispanique, XV (1906), 647.

وأحيل القارىء إلى نص جديد مع بحث واف نشر فى مجلة الأندلس :

E. Lévi - Provençal, E. Garcia Gomez, J. Oliver Asin : Novedades sobre la batalla ilamada de al-Zallaka. Al-Andalus, XV (1950) fasc. 1, pp. 111-156.

رذريق مغامر يعمل لحسابه الخاص :

وهنا يبدو السيد فى صورة مروعة حقاً ، فقد مضى ينتسف ماوصل إليه من بلاد شرق الأندلس فى غير رحمة أو هوادة . ولم يقتصر على بلاد المسلمين بل تعداها إلى بلاد النصارى ، فأغار على نواحى إمارة برجلونة وأطلق جنوده فيها يحرقون ويخربون[1] ، وخافه صغار أمراء المسلمين فى هذه الناحية ، فدفعت له سَهْلَةُ «بنى رزين» والبونت ومربيطر وشُبْرُبْ والمنارة الجزيةَ ، واتسعت ثروته وكثر جمعه ، ثم انقض على بلنسية وشدد الحصار حولها . وتسامع ألفونسو السادس بما يفعله هذا المارد فى شرق الأندلس ، فأسرع بقواته ليسبقه إلى بلنسية ، وكان ألفونسو قد دعا رذريق قبل ذلك للانضمام إليه ومعاونة النصارى فى الدفاع عن حصن لييط Alédo ضد المرابطين فى غرب الأندلس فلم يستمع له ، فغضب عليه ؛ ومن ثم فقد سار نحوه هذه المرة وهو مجمع القضاء عليه . وتحالف ألفونسو مع جماعات من بحارة الجنويين والبيشيين (أهل بيزا) فى الاستيلاء على البلد ، فلم يكن من السيد إلا أن أسرع بقواته إلى أرض قشتالة ومضى يخرب ويقتل وينهب ، فخرب مدائن نخره وقلهُره ولوجرونيو ، فاضطر ألفونسو إلى العودة إلى بلاده ، وعاد السيد إلى سرقسطة يحتمى فيها من جديد[2] .

وكان السيد خلال ذلك كله يعتبر بلنسية ملكاً له ، يأخذ منها إتاوة قدرها مائة ألف مثقال من الذهب فى العام ويقوم بحماية القادر المنكوب . وكان إذا ترك بلنسية ترك فيها وكيلا له يسمى ابن الفرج ، كان لا يألو جهداً فى استخراج الأموال من الناس ، وقد ضج أهل بلنسية من عسفه وسئموا الطاعة لهذا القادر « ملكها المشئوم » ، كما يقول ابن عذارى ، وكان السيد قد شل يده عن كل شيء ، بل يقول ابن عذارى إنه خلعه وتركه جانباً[3] .

(١) Dozy, Recherches, II. p. 115-116

(٢) ابن الكردبوس : « الاكتفاء فى أخبار الخلفاء » ، (مخطوط بمدرسة الدراسات العربية فى مدريد) ، قطعة نشرها دوزى :
Dozy, Recherches, II, appendice II, pp. XIX-XX.

(٣) ابن عذارى : « البيان المغرب » ، ج ٤ . قطعة نشرها ليڤى پروڤنسال فى مجلة « الأندلس » ، مجلد ١٣ (١٩٤٨) ج ١ ، ص ١٠٩ .

وكان المرابطون قد قرروا — بعد عبور يوسف بن تاشفين الثانى إلى الأندلس — أن يتلافوا أمر شرق الأندلس ، كما سدوا ثغر غربه بانتصار الزلاقة ، فوجهوا قائدهم محمد بن عائشة بقوة احتلت مرسية وجعلتها مركز أعمالها ، ولبثت ترقب الحوادث .

جعفر بن جحاف يتولى أمور بلنسية :

وتسامع أهل بلنسية بوجود القائد المرابطى فى مرسية على مقربة من بلنسية ، فأملوا مسيره إليهم ، وكتبوا إليه . ثم انتهزوا فرصة خروج السيد إلى سرقسطة ووثبوا على وكيله وعلى القادر معاً ، وكان يقودهم فى ذلك قاضيهم أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف وابن واجب صاحب الأحكام فى البلد . فعجل القادر بإرسال بعض عياله إلى حصون نفر من أصدقائه المجاورين لبلنسية ، وهرب بنفسه واختفى فى دار أحد أتباعه ، فبحث عنه ابن جحاف وقتله فى رمضان من ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ ، وطاف الناس برأسه على عصا فى شوارع البلدة[1] . ووصلت قوة مرابطية يقودها

---

(١) محمد بن علقمة : « البيان الواضح عن الملم الفادح » ، رواية ابن عذارى : « البيان » ، ج ٤ ، ص ١١٠ .

وابن علقمة هو أبو عبد الله محمد بن خلف بن علقمة ، ولد سنة ٤٢٨/١٠٣٦ — ١٠٣٧ وتوفى ٥٠٩/١١١٦ . كان أديباً ناظماً ناثراً ، كتب عن بعض أمراء الطوائف فى عصره ، وقد كان فى بلنسية أثناء حصار السيد إياها واستيلائه عليها وكتب فى ذلك كتاباً فريداً يسمى « البيان الواضح عن الملم الفادح » ضاع أصله ، ولكن الذين ألفوا المدونة العامة الأولى (Primera Cronica General) ، التى نسميها هنا عادة « تاريخ إسپانيا العام » ، ترجموه إلى الإسپانية وضمنوه هذا التاريخ . وقد اكتشف ذلك رينهارت دوزى وبرهن عليه بدلالات من أسلوب الترجمة . ثم عثر ليڤى پروڤنسال على الجزء الرابع من ابن عذارى ووجد فيه فقرات كاملة من كتاب ابن علقمة ، فقام بمقارنة هذه الفقرات بالنص الإسپانى الموجود فى المدونة ، وانتهى إلى إثبات نظرية دوزى بصورة قاطعة :

Cf. : Dozy, Recherches, II. pp. 45-46.

Lévi-Provençal, La Toma de Valencia por el Cid. Al-Andalus XIII (1948) fasc. 1 . p. 99-102.

وانظر عن ابن علقمة : الضبى : « بغية الملتمس » ، (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٨٧) رقم ٥١٤ — حاجى خليفة : « كشف الظنون » ، (طبعة فلوجل) ، ج ٢ ، ص ١٢١ .

Pons Boigues, Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos arabigo-espanoles (Madrid, 1898) nu. 140.

قائد يسمى ابن نصر ، فاعتز بها ابن جحاف وأصحابه . وتولى القاضى رياسة البلدة ، ويبدو أن الغرور ركبه بهذا التوفيق الذى وصل إليه ، فأظهر « أبهة الملك ، وطمح بصره إلى قضية القاضى محمد بن إسماعيل بن عباد ، فما حسّن النظر ولا ساعده القدر ، فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والزعماء ، والغلمة أمامه ، ويركب فيتقدمه العبيد والطرد ، ويتأخر عنه الجند ، وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء[1] » .

ولم تزودنا المراجع بقدر صالح من المعلومات عن جعفر بن جحاف ، ولكننا نفهم منها أنه كان من أسرة تكررت فى أفرادها ولاية القضاء ، فقد ولى جده جحاف بن يمن القضاء لعبد الرحمن الناصر واستشهد فى غزاة « الخندق » عام ٣٢٧ هـ . / ٩٣٨ [2] . وكان جعفر « آخر القضاة من بنى جحاف » ببلنسية ، وكان له جد آخر تولى القضاء ببلنسية أيضاً هو جعفر بن جحاف بن يمن المتوفى سنة ٣٧٦ هـ . / ٩٨٦[3] .

وواضح من كلام ابن علقمة أن العُجب ملك جعفر بن جحاف بعد هذا الذى صنع ، وخيل إليه أنه يستطيع السير فى آثار أبى القاسم عباد القاضى الذى ملك إشبيلية وأنشأ لنفسه بها دولة بذكائه ودهائه ، ولكن ابن جحاف لم يكن مؤهلا لمثل هذا المطلب ، فأساء السياسة و « وقع فى هراش ، وتفرقت الظباء على خراش ، ودُفع إلى النظر فى أمور سلطانية لم يتقدم قبل [له شأن] فى غوامض حقائقها ، وإلى ركوب أساليب سياسية لم يكن له عهد باقتحام مضايقها ، ولا بالدخول فى ضنك مآزقها ، ولم يعلم أن تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم ، وأن عقد ألوية البنود ، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود » كما يقول ابن بسام[4] . ولم يلبث أن ملكه الزهو ، فشغل بمظاهر الرياسة عن تدبير أمور بلده ، وصدق فيه قول ابن خلدون : « إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها[5] » .

---

(١) ابن علقمة : المرجع السابق ، ص ١١١ .
(٢) الضبى : « بغية الملتمس » ، رقم ٦١٥ .
(٣) ابن الفرضى : « علماء الأندلس » ، رقم ٣١٧ .
(٤) ابن بسام : « الذخيرة » ، (« أبحاث » دوزى) ، ج ٢ ، ذيل ٢٢٢ ص ١١ .
(٥) « المقدمة » ، (طبعة القاهرة ١٩٣٠) ، فصل ٣٥ ، ص ٤٧٩ .

وكان من الطبيعى أن يغضب رذريق لما حدث ، ولكنه كان رجلا سياسياً بعيد الغور ، فكتب إلى ابن جحاف يهنئه بما فعل ويطلب إليه أزواداً له كانت مختزنة فى بلنسية ، فرفض ابن جحاف لأن البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين « وتلك الأطعمة انتهبها رجاله[١] » . فكشف رذريق عن وجهه وأقبل يحاصر البلد ، وأقسم ألا يبرحه حتى يظفر بابن جحاف ، وتذرع بأنه يطلب ثأر القادر بن ذى النون ، واستجلب أمداداً كثيرة من الحصون المجاورة ، « واتصل الضرب منها إلى بلنسية فأضرّ بها وقتل من ظفر به من أهلها ، وكان معه جملة من رجال ابن ذى النون[٢] » . وأرسل المرابطون إلى بلنسية مدداً جديداً بلغ به عدد فرسان ابن جحاف ثلاثمائة ، فزاد وثوقاً من أمر نفسه ، وبدأت المناوشات بين رذريق وبين أهل بلنسية .

وأراد القاضى ابن جحاف أن يكون سياسياً ، فكان فى هذا حتفه ! أراد أن يخلص من المرابطين جملة ليستبد بالبلد وحده ، ولمح رذريق منه هذا الطمع ، فأكد له أنه معه فيه ، وأيده فى طرد المرابطين . وأحس أهل بلنسية بذلك ، فراجعوا قاضيهم فى الأمر ، ووقع الخلاف بينهم وبينه ، فسجن بعضهم ، وفيهم الأديب أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فكتب فى سجنه كتاباً يصف فيه الأمر لأحد أصحابه. وقد نشر ابن بسام هذا الخطاب فى « ذخيرته » ، فكان هذا الخطاب هو مفتاح معرفتنا لحياة رذريق وأعماله وكارثة بلنسية على يديه ، وقد نشر دوزى ذلك النص سنة ٨٤١ ، وكان الناس قبل ذلك يحسبون أن السيد شخصية أسطورية ، فلما نشر دوزى هذه القطعة من « الذخيرة » مع قطع أخرى من « الاكتفاء فى تاريخ الخلفاء » لابن الكردبوس ومن « الحلة السيراء » لابن الأبار ، أعاد الناس النظر فيما بين أيدينا من أخبار السيد فى « البريميرا كرونيكا خينيرال » وغيرها ، وكتب دوزى مقاله المشهور :

Le Cid d'après des nouveaux documents,

وانتقل السيد إلى ميدان التاريخ من ذلك الحين[٣] .

---

(١) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٢) ابن علقمة ، ص ١١١ .

(٣) *Cf.* : Dozy, Recherches, II. pp. 1 sqq

بدء محاولات المرابطين لنجدة بلنسية :

وفى سنة ٤٨٦ هـ . /١٠٩٣ م . استجاب المرابطون لنداء أهل بلنسية، وتحركت منهم جموع نحوها ، وأمر يوسف بن تاشفين رجاله وقواده بالتوجه إلى البلد ، فتجمعت جموعهم فى « شاطبة » لتسير منها إلى بلنسية . واستبشر أهل البلد وزاد دفاعهم عن بلدهم ، والسيد فى أثناء ذلك ينزل أشد أنواع التعذيب بمن عساه يقع فى يده من البلنسيين ، ويشدد الحصار عليهم حتى بدأت المجاعة تضُرُّ بهم . وكان — ككل أهل عصره — يؤمن بعيافة الطير ، وكان يقول لأصحابه إن طيوره تبشر بأن البلد له ، « يضيف إلى ذلك مخرفة من كذبه يقوى بها نفوس أصحابه[1] » ، كما يقول ابن علقمة ، فقال أحد أهل بلنسية ساخراً من رذريق وطيوره :

قولوا للذريق إن الحق قد ظهرا أو فقِّدوه إذا ما طيره زجرا
سيوف صنهاجة فى كل معترك تأبى لأطياره أن تصدق الخبرا

و « سيوف صنهاجة » إشارة إلى المرابطين الذين كان البلنسيون ينتظرون قدومهم من يوم لآخر .

وكان يقود القوات الذاهبة إلى بلنسية الأمير أبو بكر بن إبراهيم اللمتونى ابن أخى يوسف بن تاشفين . وكانت جموعه عظيمة ، وكان مستطيعاً استنقاذ البلد وأهله لو أنه جد فى المسير ، ولكنه تلكأ لسبب غير معروف . وأدرك رذريق على أهل بلنسية غضب جعله يخرج عن المألوف فى حروب تلك الأيام ، وأرهب البلد وأهله رهبة شديدة تعجلا لتسليمهم ، وأدركه الخوف من مفاجأة المرابطين إياه فبعث يستنجد بألفونسو السادس . واقترب المرابطون من بلنسية وتراءت لأهلها طلائع الإنقاذ ، وهنا نفاجأ بأمر لا زلنا نبحث له عن تعليل دون جدوى : فإن أبا بكر بن إبراهيم اللمتونى لوى عنانه وهو بمرأى من البلد وعاد أدراجه نحو مرسية ! ولو أن يوسف بن تاشفين لم يكتب إليه بعد ذلك يؤنبه على ذلك التخاذل ، ويوجه إليه أقسى الألفاظ ، لعللنا انصرافه بأمر يوسف إياه ، ولكننا نجد يوسف يذهب فى

---

(١) ابن علقمة ، ص ١١٦ .

غضبه عليه إلى حد عزله عن ولايته . وكان تصرف القائد المرابطى على هذا النحو سبب ضياع بلنسية بعد ذلك[١]

رذريق يحاصر بلنسية :

ونستطيع أن نتصور شعور رذريق وهو يرى المرابطين ومن معهم يحجمون عن اللقاء على هذا النحو الغريب ، ونستطيع كذلك أن نتصور خيبة آمال البلنسيين وهم يرون أنفسهم يقعون بين يدى جلادهم ولا مهرب . وكان من الطبيعى أن يزداد كَلَب رذريق على البلد ، « فأقام يجبى الرعية ويوجه المغيرة ، ويمنع الدخول إلى المدينة ، ويعيث فى فل الفار عنها ، ومن تحرك من قريته أو شعر بحركته يستعبد أهله وولده ، فلم يقدم أحد على التحرك ، ولا حدث نفسه بالتحول[٢] » .

« وأيقن أهل بلنسية بالهلكة ، وغلب على الناس اليأس ، وضاقت النفوس ، وزاد حقد العدو وقسا قلبه ، وهلك أكثر الناس جوعاً وأكلت الجلود والدواب وغير ذلك ، ومن فر من المحلة فقئت عيناه أو قطعت يداه أو دقت ساقاه أو قتل ، فرضى الناس بالموت فى المدينة ، وزادت هذه الأزمة على أزمة طليطلة أضعافاً ، لانفساح مدة الحصار ، وتضاعف حقد العدو ، لصبرهم وطلبهم النصرة[٣] » .

---

(١) ابن علقمة : « البيان الواضح » ، ص ١١٢ — ١١٣ .

وقد جاء فى « المدونة العامة الأولى » أن القائد المرابطى كتب من دانية إلى بنى واجب فى بلنسية كتابا يعلل فيه انصرافه بقلة الأزواد معه وبهطول الأمطار وتدافع السيول مما جعل مسير الجيوش عسيراً ، فلم يكن له بد من العودة إلى مرسية ، ووعدهم فى الخطاب بأنه راجع إلى بلنسية لغوث أهلها فى القريب .

Cf. : Prim. Cron. Gen. pp. 575a-576b.

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وقال ابن بسام : « وقوى طمع رذريق فى ملك بلنسية ، فلزمها ملازمة الغريم ، وتلذذ بها تلذذ العشاق بالرسوم ، [ومضى] ينتسف أقواتها ويقتل حماتها ، ويسوق إليها كل منية ، ويطلع عليها من كل ثنية . . . وبلغ الجهد بأهلها والامتحان ، أن أحلوا محرم الحيوان ، وأبو أحمد المذكور فى أنشوطة ما سهل وسنى ، وشرك ماجر على نفسه وجنى » . « أبحاث » دوزى ، ذيل ٢٢ ، ص ١٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١١٤ .

واستبسل أهل بلنسية استبسالا يعتبر مثالا عالياً فى الشهامة والحفاظ وبذل النفس فى سبيل حياض الوطن . وقد وصف لنا محمد بن علقمة فى كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح » أصناف ماقاسى أهل بلنسية من الأهوال أثناء هذا الحصار ، وصور لنا حالة بلنسية على صورة تفتت الأكباد[1]، ويكفى أن نقول إن تاريخ المسلمين لم يعرف حصاراً بلغ المحاصرين فيه مثل هذا الحد من الجهد والتلف دون أن يستسلموا ، وأن تاريخ الحروب لم يدون لقائد من القواد من القسوة وتحجر القلب والبعد عن الرحمة كما سجل لرذريق أثناء حصاره بلنسية . ومهما التمسنا له من الأعذار من ظروفه أو من روح العصر ، فإننا لا يمكننا أن نصف ما فعله ببلنسية وأهلها إلا أنه إجرام مروع رهيب .

---

(١) قال ابن علقمة (ص ١٢١ من « البيان الواضح ») :

« ومما امتحن به أهل بلنسية فى هذه السنة المؤرخة ، قال محمد بن علقمة : بلغ رطل القمح فى ربيع الأول بمثقال ونصف ، ورطل الشعير بمثقال ، ورطل زريعة الكتان ستة أثمان مثقال ، وأوقية الجبن ثلاثة دراهم ، وأوقية البصل بدرهم ، ورطل البقل بخمسة دراهم ، وبيضة دجاجة بثلاثة دراهم ، ورطل اللحم البغلى بستة دنانير ، ورطل الجلد البقرى بخمسة دراهم .

« وفى ربيع الثانى [الأول : ms] عظم البلاء ، وتضاعف الغلاء ، واستوى فى عدم القوت الفقراء والأغنياء . فأمر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت . وأعاد ابن جحاف استصراخ ابن هود ورغبه فى المال والبلد ، مع الأجر فى استنقاذ المسلمين من القتل والأسر .

« وانسلخ هذا الشهر ، ورطل القمح بثلاثة مثاقيل غير ربع ، وما سواه تابع له . ولا يصل إلى إدراك شىء من الموجود إلا أهل الجاه ، وترمق سائر الناس بالجلود والأصماغ وعروق السوس ، ومن دون هؤلاء بالفيرة والقطط وجيف بنى آدم . وهجم على نصرانى وقع فى الحفير ، فأخذ باليد ووزع لحمه .

وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء . فهان على الناس الإحراق بالنار ، فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار .

« ودخل جمادى الأولى وعدمت الأقوات بالجملة وهلك الناس ، ولم يبق من ذلك الجم إلا نزر يسير . وتوالى اليبس واستحكم الوباء ، وبينما الرجل يمشى ، سقط ميتاً . ولم يبق ما يدب على أربع إلا اثنان لابن جحاف وابنه ، واثنان لابن رتبير . وباع ابن رتبير فرسه من الجزارين بمائتى مثقال ، واستثنى منه عشرة أرطال فبيع الرطل منه أوله بعشرة دنانير وآخره باثنى عشر ديناراً ، ورأسه بخمسة عشر مثقالا » .

أحوال بلنسية أثناء الحصار :

وكان القاضي جعفر بن جحاف رئيس البلد يرقب ذلك في جزع بالغ ، وقد أفلت الزمام من يده وتهاوت آماله في قرب مجيء المرابطين لعونه ، وكان ليوسف بن تاشفين رأى طيب فيه ، وكان يرجو إنقاذ بلنسية من بلائها ، لولا كثرة مشاغله . وأراد القاضي التخفيف من شدة المجاعة ، « فأمر باقتحام الدور فحصا عن القوت » وعاد يستصرخ سليمان بن هود ، « ورغبه في المال والبلد مع الأجر في استنقاذ المسلمين من القتل والأسر »(١) ، فلم يجده ذلك كثيراً . وتحرج مركزه ، وكان قد ترك مقاليد الأمور لأصحابه بني واجب ، ويبدو أنهم لم يكونوا أحسن منه تدبيراً(٢) ، فازداد مركزه ضعفاً ، وبدأ نفر من أهل البلد يتحدث في التسليم ، وكان على رأس هؤلاء شيخ مسن من أجلاء أهل البلد ، هو أبو الوليد الوقشي(٣) ، ورجل آخر من أهلها يسمى ابن عبدوس .

كان أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد الكناني — المعروف بالوقشي لأنه ولد ببلدة وَقَّشْ — من كبار علماء عصره، وكان قد ضرب في كل معارف أهل عصره بسهم وافر ، وكانت سنه إذ ذاك تقارب الرابعة والسبعين لأنه ولد سنة ٤٠٨ هـ . / ١٠١٧ م ، وكان في بلنسية أثناء حصارها . وتذكر « المدونة العامة الأولى » أنه لم يكن راضياً عن جعفر بن جحاف ، وأنه نصحه كثيراً بالاعتدال والتسليم ، وجرت بينهما مناقشات كثيرة ، والتف حوله نفر من أهل البلد، فغضب عليهم ابن جحاف وأراد أذاهم(٤)، فسعى في الاتصال برذريق ، ويبدو أن هذا هو ما أشار إليه ابن بشكوال في ترجمته للوقشي حينما قال : « وقد نسبت إليه أشياء الله أعلم بحقيقتها ، وسائله عنها ومجازيه

---

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٢) ابن علقمة : القطعة المترجمة في Prim. Cron. Gen. 576a-579a.

(٣) R.M. Pidal, La Espana del Cid, II p. 493.

(٤) Op. cit. p. 493.

بها[١] » ، وكان من معارضى ابن جحاف كذلك الأديب المعروف أبو عبد الرحمن بن طاهر ، فأودعه ابن جحاف السجن[٢] على ما ذكرناه .

بيد أن طول الحصار وتوالى المحن أقنع جعفر بن جحاف بضرورة التسليم ، فبدا له أن يبعث لرذريق رسلا ليرى إذا كان من الممكن أن ينصرف عن البلد لقاء إتاوة كبيرة ، فاعترض على ذلك نفر ممن كانوا لا يزالون يؤملون فى مدد المرابطين — وفى مقدمتهم بنو واجب ورئيسهم أبو الحسن بن واجب ، صاحب الأحكام فى البلد — فعزله ابن جحاف عن الأحكام . وعاد الرسل يقولون إن رذريق يشترط إخراج بنى واجب من البلد قبل البدء فى أى تفاهم ، وأحس أبو الحسن بن واجب أن ابن جحاف يريد إخراجه ففر من بيته ، فأرسل ابن جحاف نفراً من الجند تعقبوه حتى عثروا عليه ، ثم أخرجوه مع أهل بيته وأنصاره أجمعين وأسلموهم لرذريق ورجاله فقتلوهم[٣]. وبلغ ذلك المرابطين فتغيرت نفوسهم على ابن جحاف ، وأنكر أهل بلنسية منه ذلك ، فزاد مركزه سوءاً ، ولم يبق له إلا مخرج واحد من « الأنشوطة » ، كما يقول ابن بسام : هو أن يتفاهم مع رذريق على إسلام البلد له .

وسعى ابن جحاف فى استرضاء رذريق ، فطلب إليه هذا أن يسمح له بالنزول فى قصور كانت لابن عبد العزيز صاحب بلنسية الأسبق ، وكانت خارج البلد ، فتنزل له ابن جحاف عنها . واحتوى عليها السيد ، فزاد غضب البلنسيين على رئيسهم ، وزاد غضبهم أن رذريق لم يذكر هذه اليد لابن جحاف ، فأمر رجاله بعد أيام بهدم القنطرة الجميلة التى كانت تقوم على نهر بلنسية ، وكانت من محاسن البلد ومواضع فخر أهله ، فهدمت بحجة منع المرابطين من استعمالها إذا قصدوا البلد . فاشتد حنق الناس على ابن جحاف ، وخافوا أن يسلمهم قاضيهم لعدوهم ، فتكلموا فى عزله ، فخافهم

---

(١) الضبى : « بغية الملتمس » ، رقم ١٤٢٦ .

ابن بشكوال : « الصلة » ، رقم ١٣٢٣ . وقد توفى الوقشى بدانية يوم الاثنين ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٤٨٩ هـ .

(٢) انظر عن أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر : ابن خاقان : « القلائد » ، ص ٦٤ .

(٣) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. cap. 914, pp. 5836 sqq.



٨
٦
٤
٤٤
٤٢
٤٠
٣٨
٣٦
نهر المنيو
مملكة
جليقية
ليون
وقشتالة
براجا
برتقال
نهر دويره
سلمنقة
شقوبية
ابلة
قلمرية
وقش
طليطلة
نهر تاجه
شنترين
بطليوس
يابرة
المرابطين
باجة
مرتلة
ولبة
لبلة
الوادي الكبير
قرطبة
اندوجر
جيان
استجة
البيرة
قرمونة
اشبيلية
مورور
اركش
وادي لكه
رندة
مالقة
غرناطة
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة



الأندلس
فى عصر المرابطين
٤٨٤ — ٥٤١ هـ
١٠٩١ — ١١٤٦ م
نبرة وأرغون
إمارة سرقسطة
إمارة بلنسية
قطلونية
الجزائر الشرقية
أربونة
برشلونة
طرطوشة
وشقة
سرقسطة
دروقة
قونكة
المنارة
مربيطر
بلنسية
شاطبة
دانية
لقنت
الش
أوريولة
مرسية
لورقة
قرطاجنة
ميورقة
منورقة
يابسة
أقليش

على نفسه ، وجعل يتعقب رؤوس الفتنة عليهم بالسجن والأذى[١].

وفى أثناء هذه المحنة القاسية نظم أبو الوليد الوقشى قصيدة طويلة يصف فيها مصاب بلنسية ، وقد ضمنها ابن علقمة كتابه الآنف الذكر ، وترجمها معاونو ألفونسو العاشر المعروف بالعالم فيما ترجموا من كتاب ابن علقمة ، وجعلوها ضمن نص « المدونة العامة الأولى » وزعموا أن الوقشى صعد على أسوار بلنسية وأنشدها . وقد أعجب بعض ناسخى « المدونة » بها وأراد أن يتعرف نصها العربى ، فلجأ إلى رجل يعرف بعض ألفاظ من العربية — يذهب بعضهم إلى أنه يهودى وبعضهم الآخر إلى أنه من أهل مراكش — فكتب تحت كل كلمة من ترجمتها الإسبانية لفظاً عربياً يقابله ، ورسمه بحروف لاتينية ، ولهذا وصلتنا بعض نسخ « المدونة » وهذه القصيدة مدونة فيها بهذا النص العربى مكتوباً بحروف لاتينية كلها تحريف وتصحيف ، ولا زال هذا النص الذى يعرف « بمرثية الوقشى لبلنسية » من المشاكل اللغوية التى تحير الباحثين[٢].

---

(١) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. p. 5736 sqq.

(٢) وردت الترجمة الإسبانية لمرثية الوقشى فى : Prim. Cron. Gen. pp. 576a-579a.
أما ترجمتها الحرفية إلى العربية — مكتوبة بحروف لاتينية — فقد وردت فى ثلاث نسخ من « المدونة » نشرها منندذ پيدال :

Cf. : R.M. Pidal, Sobre Aluacaxi y la elegia árabe de Valencia. Homenaje a Codera (Madrid 1904) pp. 392-403.

وانظر رأى خليان ريبيرا فى المرثية فى نفس المصدر ، ص ٤٠٣ وما بعدها . وسأكتفى ببيت واحد من هذه المرثية كنموذج لهذا النص الغريب ، وسأضع بعد كل بيت نصه العربى كما رسمه ريبيرا وأتبعه بترجمة لما يقابله من الترجمة الإسبانية التى وردت فى المدونة :

1. Valencia Valencia gayt eleic quezra quebira

بلنسية بلنسية جاءت عليك كسرة كبيرة

Antafi hauch hantumunic fe ynquem yechtum

فى أنت وقت حانت موتك ف إن كان يكون ؟

Cagidach anteflet mejujede yecon agaban

قدرك ؟ (قدرلك) أن تفلت من ؟ هذا يكون عجباً

que bulimen yeric

لمن كبيراً ؟ يريك

بلنسية ، بلنسية ، توالت عليك ويلات كثيرة ، وقد حان حينك
فإذا قدر الله لك النجاة من هذا البلاء ، لكان ذلك أمراً عجيباً لمن يراك . =

وطال صمود البلنسيين للحصار ، وبلغ الغضب بالسيد مبلغاً جاوز به الحد فى القسوة على من ظفر به من المسلمين خارج البلد . قال ابن الكردبوس : « وانقطع إلى القنبيطور وغيره من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفسادهم وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ويسلبون الأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ونبذ شريعة النبى (صلعم) إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يُفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية[1] » .

وأراد رذريق أن يتعجل تسليم البلد ، فمنع من يريد الخروج من مبارحتها حتى تزداد المجاعة إلى داخلها استحكاماً . قال ابن علقمة : « وجد الطاغية فى حرق من خرج من المدينة إلى المحلة ، لئلا يخرج الضعفاء ، ويتوفر القوت على الأغنياء ، فهان على الناس الإحراق بالنار . فعيث فيهم بالقتل ، وعلقت جثثهم من صوامع الأرباض وبواسق الأشجار[2] » .

ومن الغريب أن مؤرخ السيد « مننديذ پيدال » تصدى للدفاع عن هذه الفظاعات كلها ، فزعم أنها من أساليب الحرب المشروعة ، ومضى يخبط خبطاً غريباً يأسف له كل منصف ، ثم زعم أن الذين كانوا يفعلون ذلك كله هم المسلمون من حلفاء السيد والعاملين فى معسكره وحدهم ، مما لا يؤيده فيه نص واحد من « المدونة » أو غيرها[3] .

رذريق يدخل بلنسية :

وأخيراً ، وبعد أن بلغ الجهد بالبلنسيين مداه ، وانقطع أملهم فى الغوث

= والقصيدة على درجة كبيرة من الأهمية لما فيها من وصف بلنسية وما كان فيها من جليل المبانى ، وما كان يحيط بها من سور عظيم ذى أبراج أيام سعدها ، وما كان أهلها ينعمون به من رياض وخيرات ، وما كانوا يتمتعون به من الخروج إلى المنازه على ضفاف النهر وعند القنطرة .

(١) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، فى « أبحاث » دوزى ، ج ٢ ، ذيل ٢٧ ، ص ٢١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٢٢ .

(٣) R.M. Pidal, op. cit. pp. 507-508.

وانظر رأى دوزى فى ذلك كله فى ختام المقال .

من أية ناحية ، اتفقوا على التسليم ، وأخذ القاضى ابن جحاف على رذريق أوثق العهود ألا يؤذى أهل البلد فى أنفسهم وأموالهم . وفى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ . / مايو— يونيو ١٠٩٤ م . دخل السيد بلنسية ، واستهل أمره فيها استهلالا طيباً ، فجمع أهل البلد وخطب فيهم خطبة احتفظت لنا « البريميرا كرونيكا » بترجمتها الإسبانية — إذ الغالب أن السيد ألقاها بعربية أهل الأندلس — قال فيها : « إننى رجل لم يملك قبل ذلك مملكة أبداً ، ولم يكن ذلك لأحد من أسلافى ، ولكن اليوم الذى رأيت فيه هذه البلدة أعجبتنى ورغبت فيها ، وسألت الله أن يملكنى إياها ، وها أنتم ترون الآن قدرة الله الذى تفضل وأعطانى بلنسية . وعندما قدمت لحصار بلدة جباله Juballa لم أكن أملك إلا أربعة أرغفة من الخبز ، فأولانى الله من فضله ما ملّكنى به بلنسية وجعلنى سيدها . فإذا أنا سرت بالعدل ومضيت بالأمور فى طريق حسن فسيتركها لى الله ، وأما إذا أنا ملكتنى الكبرياء والخسة وأسأت السيرة ، فأنا أعلم حق العلم أن الله سيسلبنى إياها . وعلى هذا فليرجع كل منكم إلى ما كان بيده وليمض فيه كما كان قبلا ، ومن وجد منكم حقله أو كرمه خالياً فليدخله ، ومن وجد حقله مزروعاً فليدفع لزارعه أجره وما أنفقه فيه وليستعد ملكه إياه على ما تقضى به شريعة الإسلام ، وعلى القائمين بجباية أموال البلد ألا يأخذوا من الناس أكثر من العشر ، كما تقضى به شريعتكم » . ثم قال بعد ذلك : « وقد قررت أن أقعد لسماع ظلاماتكم يومين فى الأسبوع : الاثنين والخميس ، وإذا وجد أحد منكم نفسه مظلوماً فليأتنى أى يوم أراد ، فسيجدنى سميعاً . ذلك لأننى لا أنفق وقتى مع النساء أو على الشراب وسماع الغناء كما يفعل أصحاب الأمر فيكم ، أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم إذا مست حاجتكم إلى ذلك : إننى أريد أن أسمع بنفسى أقضيتكم ، وأريد أن أكون لكم رفيقاً ، أحميكم كما يحمى الصديق صديقه والقريب قريبه ، أريد أن أكون قاضيكم الذى يفصل فى خصوماتكم ووزيركم الذى ينفذ الأحكام ، ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضى بينكم بالحق » . واستطرد فى أشباه ذلك الكلام ، ثم عرج على ابن جحاف فقال : « وقد بلغنى أن ابن جحاف عدا على بعضكم وظلمه ، وأنه سلب بعضكم أمواله ليهديها إلىّ ، وأنه فعل مثل ذلك بمن كانوا يبيعون الخبز للناس بسعر فاحش

أثناء الحصار ، ولم أكن أنا راغباً فى أن تهدى إلىّ هذه الأموال ، ولو أردتها لأخذتها بنفسى دون أن ألجأ إليه فى تحصيلها ، لم أرغب فيها لأن الله لا يرضى أن أغصب أحداً ماله دون حق ، وهو يبارك لمن يحسن البيع ويعامل من معه بالحق . وعلى هذا ، فمن أخذ منه ابن جحاف شيئاً فليطالبه به ، وقد أمرت بأن يرد إليكم كل شىء ... هل رأيتم الأموال التى أخذتها من الرسل الذين ذهبوا إلى مرسية ؟ لقد كانت هذه الأموال حقاً لى ، فقد غنمتها عن حرب وفزت بها من قوم حنثوا فيما اتفقوا معى عليه ، ومع أننى أخذت هذا المال بوجه حق ، فإننى أمرت الآن بأن يرد إلى أصحابه إلى آخر درهم فلا يضيع عليهم منه كثير أو قليل » . ثم قال : « وإنى آمر بألا يؤسر مسلم أو مسلمة فى بلنسية ، وإذا خالف أحد ذلك فأطلقوا الأسير بالقوة واقتلوا آسره . . » . وقال بعد ذلك : « ولا أريد دخول بلدكم ولا المقام فيها ، وإنما سأتخذ لى عند « القنطرة » منزلا أقيم فيه إذا مست بى الضرورة إلى المقام[1] » .

وهذا الكلام من رذريق يدل على مهارة سياسية كبرى ، وعلى علم دقيق بأنظمة المسلمين . وقد ذهب مننندذ پيدال داعية السيد إلى أنه يدل على تأصل نوازع العدالة فى نفسه[2] ، ولكننا سنرى بعد قليل أنه لن يفى للبلنسيين بشىء مما وعد ؛ ولكنه ، على أى حال ، كسب ود المسلمين من أهل بلنسية وأمن روعهم بهذا الكلام . ونلاحظ أنه أراد أن يثبت للبلنسيين أنه خير من أمراء الطوائف الذين يحتجبون عن الناس ، ولا يردون المظالم ، وينفقون أوقاتهم فى ملاذ أنفسهم . ودلت خطبته من أول الأمر على نيته نحو جعفر ابن جحاف ، فقد مهد بكلامه الطريق لاتهامه ، وزعم أنه لم يطلب إليه أموالا ، مع أنه كان يعتصره اعتصاراً ، وقد جاء معظم بلاء الرجل من اشتداده فى جمع الأموال ليؤديها إتاوات لرذريق حتى يرد طمعه ، وسيرى البلنسيون عما قريب أنه لم يكن صادقاً فى قوله إنه لم يكن طامعاً فى المال . وأما إشارته إلى

(١) ابن علقمة فى Prim. Cron. Gen. 588a-590a
وقد أورد لنا ابن علقمة معظم خطاب رذريق فى أهل بلنسية فى فصل كامل فى الصفحات المبينة أعلاه ، وعنوانه :

918. Capitulo de como el Çid entro en la noble cidat de Valencia et de muchas et muy nobles razones que ouo con los moros.

(٢) R. Menéndez Pidal, op. cit. II, p. 638.

رد أموال رسل مرسية فتدل على ذكاء ، لأن رسل مرسية كانوا رسل المرابطين ، فكأنما رمى رذريق من وراء ذلك إلى إفهام المرابطين وأنصارهم أنه يريد أن يصادقهم ويعيش معهم فى أمان ، ولم يكن صادقاً فى كذلك أيضا .

شرق الأندلس نهب للفوضى :

دخل رذريق بلنسية فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ . / فبراير ١٠٩٤ وقضى الفترة الأولى يمهد أمرها لنفسه ، وقد أحسن السيرة أول الأمر « فلم يعمل هو وأصحابه — لعنهم الله — ما يسوء المدينة وأهلها بحال من الأحوال ، فانتشطت الأنفس من عقال ، وانبسطت الآمال وأمن الناس ، وهو مع ذلك يراعى أمرهم ويمنعهم من الخروج من المدينة[1] » . أما منعه الناس من الخروج من المدينة ، فقد دفعه إليه خوفه من أن يتصلوا بالمرابطين ، ويدل كذلك على أنه كان ينظر إليهم كفريسة وقعت فى يده أو أسرى صاروا إليه

بهذا أصبح رذريق أميراً على بلد إسلامى ، ولسنا نجد تكييفاً لملكه إياها ، فهو نفسه لم يكن « دولة » لها كيان ونظام ، وإنما كان قائد جماعة من الجنود ، ولم يكن جنده هيئة لها كيان ، وإنما كانوا أخلاطاً من كل صنف ، فيهم القشتالى والليونى والمسلم والنصرانى . قال ابن الكردبوس فى وصف رجال رذريق : « وكان دخوله إياها (بلنسية) سنة ٤٨٧ . وفى هذه المدة انقطع إلى الكنبيطور وغيره ، من أشرار المسلمين وأرذالهم وفجارهم وفساقهم ، وممن يعمل بأعمالهم خلق كثير ، وتسمى « بالدوائر » ، فكانوا يشنون على المسلمين الغارات ، ويكشفون الحرمات ، يقتلون الرجال ، ويسلبون النساء والأطفال ، وكثير منهم ارتد عن الإسلام ، ونبذ شريعة النبى صلى الله عليه وسلم ، إلى أن انتهى بيعهم للمسلم الأسير بخبزة وقدح خمر ورطل حوت ، ومن لم يفد نفسه قطع لسانه وفقئت أجفانه وسلطت عليه الكلاب الضارية فأخذته أخذة رابية[2] » . وهذه ليست هيئة قوة محترمة تؤمن على أمور الناس ، ولم يكن رذريق كذلك داخلا فى نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها ، وإنما كان يعمل لحساب نفسه ،

---

(١) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١١٤ .

(٢) ابن الكردبوس : « الاكتفاء » ، « أبحاث » دوزى ، جـ ٢ ، ذيل ٢٣ ، ص ٢١ .

ولهذا فنحن لا نجد تكييفاً صحيحاً له أو لنظامه الذى أقامه فى بلنسية وما حولها .

بيد أن شرق الأندلس كله كان قد صار إلى فوضى شاملة لا تجعل قيام رذريق فيه بهذا الدور أمراً غريباً ، فقد كان قد تقسم نواحيه طائفة كبيرة من صغار المستبدين ، اعتمد كل منهم على قطعة صغيرة من الفرسان وأقام لنفسه دويلة فى بلد أو حصن ، من أمثال تأييد الدولة صاحب لاردة ، وسيد الدولة صاحب طرطوشة ، وحسام الدولة صاحب شنت برية ، ونظام الدولة صاحب ألبونت ، وحسام الدولة بن رزين صاحب السهلة ، وابن طاهر صاحب مرسية[1] ، وكلهم عفاة نهازون فرضوا سلطانهم على نواحيهم . وأصدق تكييف لرذريق فى وضعه الجديد هو أنه أصبح أمير طوائف هو الآخر ، استبد بناحية بلنسية ، أميرا لطائفة نصرانية ، وهو فى ذاته أمر طريف فى ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى الأندلس . ولا يختلف مركز رذريق فى بلنسية عن مركز معن بن صمادح فى المرية ، أو مركز منذر بن يحيى التجيبى فى سرقسطة ، إلا أنه كان أقوى وأقدر . وكان رذريق يشعر بذلك ، ولذلك أحب أن يتقوى باجتذاب أهل بلنسية ناحيته حتى تقوى بذلك « طائفته » ، كما رأينا من خطابه .

ولم يكن بشرق الأندلس من الهيئات ذات الكيان الثابت إلا دولة بنى هود فى سرقسطة ونواحيها ، وقوة المرابطين فى مرسية وشاطبة ودانية وإمارة برشلونة النصرانية . فأما بنو هود ، فقد كانوا إمارة طوائف ذات قوة وكيان ، وقد أسعدها الحظ بثلاثة أمراء على جانب كبير من القدرة هم أحمد بن سليمان الملقب بالمقتدر بالله (٤٤١ / ١٠٥٠ — ٤٧٤ / ١٠٨١) الذى وحد الإمارة وعقد أحلافاً مع جيرانه النصارى ، مما أعان دولته على البقاء ، ويوسف ابنه الملقب بالمؤتمن (٤٧٤ / ١٠٨١ — ٤٧٦ / ١٠٨٣) وهو الذى لجأ إليه رذريق أول أمره فاستخدمه وانتفع بمواهبه ، إذ وجهه لحرب رامُن بيرنجوير الثانى كُند قطلونية ، وكان طامعاً فى سرقسطة ، فكسب له انتصار « المنارة » على هذا الكند القطلونى ، وقام بحمايته من مطامع ألفونسو السادس ؛ ثم أحمد بن يوسف المؤتمن ولقبه المستعين (٤٧٨ / ١٠٨٥ —

---

(١) ابن علقمة ، ص ١٢٥ .

٥٠١ / ١١٠٨) وكان أمهر الثلاثة وأقدرهم على الحفاظ على إمارته ، وقد استمر على مصانعة رذريق واستخدامه بين الحين والحين ، وتمكن من هزيمة قوات ألفونسو السادس أكثر من مرة بفضل حلفه مع هذا الفارس القشتالى ، وقد استمر هذا الحلف طوال أيام المستعين فسلمت إمارة سرقسطة من شره ، وتمكن المستعين كذلك من كسب ود يوسف بن تاشفين وتأييده ، فلم يعزله كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، وكتب إليه خطاب أمان حفظته لنا المراجع[١]. وكان هم المستعين المحافظة على أراضيه ، فلم يفكر فى غوث بلنسية رغم استصراخ أهلها به ، لأن بلاءها كان على يد رذريق حليفه ونصيره[٢] .

أصل لفظ « السِّيد » :

وإلى خدمة رذريق الطويلة لبنى هود ترجع تسميته بالسِّيد ، لأن بنى هود أمروه على جيشهم ، فكان أفراده ينادونه « بيا سيدى » ، وقلدهم فى ذلك جنده من النصارى ، فصاروا يخاطبونه بميوثيد Mio Cid أى ياسيدى ، فلزمته هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها فى التاريخ .

أما المرابطون فقد كان مركزهم قوياً فى الجزء الجنوبى من شرق الأندلس حتى مرسية ، وكانت أعظم مراكزهم شاطبة ودانية ، وكانوا يودون استنقاذ شرق الأندلس من السيد وغيره من عفاة قواد النصارى ، ولكنهم شغلوا عن ذلك بمدافعة ألفونسو السادس عن وسط الأندلس وغربه . بيد أن سقوط بلنسية فى يد السيد وأفاعيل رجاله فى نواحيها لم تلبث أن نبهتهم إلى سوء مصير شرق الأندلس إذا هم تركوه على حاله ، فوجهوا همهم كله هذه الناحية ، وأرسلوا القوات إلى مرسية تحت قيادة أبى بكر بن إبراهيم بن تافلويت أخى

---

(١) انظر : ابن الخطيب : « أعلام الأعلام » ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ . و « الحلل الموشية » ، ص ٦٠ .

(٢) انظر عن تاريخ سرقسطة فى ذلك العصر مقالنا « الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين» ، مجلة كلية الآداب بجامعة فؤاد ، مجلد ٧١ ، ج ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ ، ص ٩١ وما يليها .

يوسف بن تاشفين لأمه ، وسيّروها نحو بلنسية جادين فى الأمر هذه المرة [١] .

وكانت الإشاعات قد طارت بأن ألفونسو سائر لعون السيد ، فحسبه المرابطون قد أتى بالفعل ، فوقع الرعب بين المقاتلين وتفرقت جموعهم فى كل ناحية ؛ وهكذا فشلت هذه المحاولة الثانية وتحولت إلى كارثة جديدة ، وكان ألفونسو قد انتهز الفرصة ناحية غرناطة ومضى يخرب فيها ، فعم البلاء [٢] .

رذريق ينقلب على أهل بلنسية :

وسخط السيد سخطاً شديداً على أهل بلنسية لفرحهم بمقدم المسلمين واشتراك كبارهم فى مكاتبة المرابطين . فأمر أهل البلد بأن يوافوه إلى القصر ، فذهبوا . وهناك خطبهم خطاباً يخالف كل ما كان قد قاله لهم فى خطابه الأول : لم يحدثهم بأنهم أهله وإخوانه ، بل قال إن إخوانه هم جنوده وحدهم ، وأنه لا يهتم إلا براحة أولئك الجنود ، ثم فاجأهم بأمر جديد : طالبهم بأن يسلموه ابن جحاف وأهله وكل من له ضلع مع المرابطين ، وكانوا كثيرين جداً ، فذهل الناس وعلموا أن السيد ينوى بهم كل شر . وأمر السيد ابن عبدوس — مشرفه على المدينة — بأن يأتيه بابن جحاف وأهله وكل من له به صلة .

وقد احتفظ لنا مصنفو « المدونة » بفقرات طوال من خطاب السيد هذا ، ووصفوا لنا ذعر البلنسيين بعد أن سمعوه [٣] ، وقد أوجز ذلك ابن عذارى فيما أوجز من كتاب ابن علقمة ، قال : «ثم رجع (السيد) إلى المدينة ، فمشى بسَرِيحه باجتماع المسلمين إلى القصر ، ثم خرج عليهم ، ونظر إليهم ، وعرض بذكر المرابطين وكثرتهم ، وأن ذلك ما أغنى عنهم . وجعل ينظر فى عطفه ، ويشمخ بأنفه ، ثم قال : « انظروا لى فى سبعمائة ألف مثقال وإلا هلكتم ، وأحلت السيوف عليكم » ، ثم خرج وبقى المسلمون فى القصر ،

---

(١) ابن أبى زرع : « روض القرطاس » ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن علقمة : نفس المصدر ، ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٣) ابن علقمة : Prim. Cron. Gen. cap. 919, p. 590.

وأغلق عليهم الباب ، فصاروا فى سجن ، والروم تحفهم بالأسلحة ، فرأوا الموت ، ووقع البهت ، وخرست الألسنة[١] » .

وكان السيد قد أقام للبلد جابياً يسمى ابن الفرج من يهود بلنسية ، وكان يلقب بالوزير ، وكان معناه فى مصطلح الإدارة الأندلسية فى ذلك الحين عامل الخراج . وكان عنيفاً فى أساليبه مع أهل البلد من المسلمين ، ولكنه كان على أى حال يخفف من وطأة السيد عليهم . قال ابن عذارى بعد ذلك : « ثم رجع اليهودى وزيره إليهم وقال لهم : « لم أزل ألاطفه حتى قاطعته عليكم بمائتى ألف مثقال ، فبادروا بتوزيعها ، وافدوا أنفسكم منه » فتُوُزِّع العدد على الأحوال ، واشتد ثقاف الأغنياء . وبلغ اليهودى — لعنه الله ! — من المسلمين مبلغ الغاية فى العذاب ، وسلط اليهود على الإسلام ؛ فبلغوا النهاية فى النكال والنكاية ، ومنهم الأمناء الموكلون ، والمتصرفون ، وأصحاب الرسوم ، وخدام البر والبحر . وجلس اليهودى للقبض بصاحب المدينة من الضرب بالعصا والسوط ، وقيض لكل منهم شيطاناً يخرج معه كل غدو ، فإن جاء بشىء ، وإلا أخذ بالسوط والعذاب . وتمادت هذه المحنة مدة ، فلا قوة إلا بالله العلى العظيم[٢] » .

وفكر السيد فى حجة يتعلل بها لقتل جعفر بن جحاف وأصحابه ، وكان قد أودعهم السجن . وكان لأول دخوله البلد قد سأل ابن جحاف عن أموال القادر « واستحلفه بمحضر جماعة من أهل الملتين على البراءة منها ، فأقسم بالله جهد أيمانه ، غافلا عما فى الغيب من بلائه وامتحانه ، وجعل رذريق بينه وبين القاضى المذكور عهداً أحضره الطائفتين ، وأشهد عليه أعلام الملتين ، إن هو انتهى بعدُ إليها ، وعثر عنده عليها ، ليستحلن إخفار ذمه ، وسفك دمه ، فلم ينشب رذريق أن ظهر على الذخيرة المذكورة لديه ، لما كان قد حم من إجراء محنته على يديه ، ولعلها كانت حيلة منه أدارها ، وداهية من دواهيه سددها وأثارها ، فأنحى على أمواله بالنهاب ، وعليه وعلى أهله بأنواع العذاب ، حتى بلغ جهده ، ويئس مما عنده[٣] » . وقد أكمل

---

(١) ابن علقمة : برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٢) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٦ .

(٣) ابن بسام : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزى ، ذيل ٢٢ ، ص ١٣ .

لنا ابن علقمة بقية مأساة ابن جحاف وأهله على يد السيد التى تصل بنا إلى ذروة محنة هذا البلد التعيس على يد ذلك العنى ، قال : « فلما لم يترك لهم ظاهراً ولا باطناً ، أمر بإضرام النار . وسيق القاضى أبو المطرف يرسف فى قيوده ، وأهله وبنوه حوله ، وقد حشر الناس من المسلمين والروم . ثم قال للأ من المسلمين : « ما جزاء من قتل أميره عندكم فى شرعكم ؟ » ، فصمتوا ؛ فقال لهم : « جزاؤه عندنا الإحراق بالنار ! » ، وأمر به وبجملته إلى ذلك الضرم ، وقد لفح الوجوه على المسافة البعيدة . فضج المسلمون والروم ، وتضرعوا إليه فى ترك الأطفال والعيال ، إذ لا ذنب لهم ، ولا علم بتلك الأمور عندهم ؛ فأسعف الرعية فى رغبتهم بعد جهد ومدة ، وترك النساء والصبية . وحفر للقاضى حفرة ، وأدخل فيها إلى حُجزته ، وسوى التراب حوله ، وضمت النار إليه . فلما دنت منه ولفحت وجهه ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ! » ثم ضمها إلى جسده . فاحترق ، رحمه الله تعالى ! »

« ولم يكن غضب الطاغية عليه إلا لشدة صبره على تلك الأزمة ، واجتهاده فى طلب النصرة ، ودفعه إياه بالمطاولة ، رجاءً فى استمساك البلدة و إبقاء الكلمة »

« وعمد الطاغية — لعنه الله ! — بعد إحراق القاضى — رحمه الله ! — إلى الجلة من أهل بلنسية ، فثقفهم وأغرمهم حتى استأصل جميع ما عندهم ، وجعل الناس فى المحنة اسوة ، يأخذهم على طبقاتهم . حتى عمتهم المحنة ، وهلك فى ذلك الثقاف كثير منهم ، رحمهم الله وجعلها كفارة لهم ![1] » .

وما نظن أن حوليات التاريخ تحوى أشنع من هذه الجناية ، فقد بلغ رذريق بها أبشع درجات القسوة وتحجر الفؤاد والبعد عن كل معنى إنسانى ، فلم تكن المسألة مجرد إعدام ذلك الشيخ ، بل التلذذ بتعذيبه وحرقه هو وعياله وأهله بالنار على صورة رهيبة تدل على أنه كان فى أعماق نفسه وحشاً ضارياً[2] ، كما قال دوزى . ومع ذلك ، فقد اجتهد مننذ پيدال فى تبرير هذا الفعل الذميم والقول بأن ابن جحاف يستحق هذا العقاب الشنيع ، وأن تصرف السيد على هذا النحو دليل على عدله و إنصافه ومعرفته بالقوانين وتطبيق القوانين[3] .

(١) ابن علقمة ، برواية ابن عذارى ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٢) Dozy, Recherches, II. p. 187.

(٣) R.M. Pidal, op. cit. pp. 553-668.

وعاش السيد بعد ذلك فى بلنسية عيشة أمير شرقى ذى حول : سكن القصر ، وكان — فيما يقول ابن بسام : « زعموا تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب ويتعجب ، وفى بلنسية يومئذ يقول ابن خفاجة :

عاثت بساحتك الظبى يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردد فى جنابك ناظر ... طال اعتبار فيك واستعبار

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصاتها : ... لا أنت أنت ولا الديار ديار[١]

عسف رذريق للبلنسيين :

واشتد أذى السيد لأهل بلنسية بعد ذلك ، حتى بان أن مصيرهم إلى الفناء على يديه ، وكان إحراقه ابن جحاف وأبى جعفر البتى ونفر من أهل بلنسية على هذا النحو الذى ذكرناه قد روع المسلمين جميعاً ونبه المرابطين إلى ضرورة استنقاذ البلد قبل أن يخرب تماماً ، وقد صدق مننذ پيدال فى قوله : « إن ابن جحاف استطاع بعد موته أن يكون أشد ضرراً على السيد مما كان فى حياته ، فإنه أصبح بذلك شهيداً تؤجج روحه حوافز الثورة فى المسلمين حوله[٢] » . والواقع أن اشمئزاز الناس من هذه الجناية كان عظيما ، وتحول ابن جحاف فى اعتبارهم إلى « شهيد » مات على يد طاغية نصرانى ؛ حتى ابن طاهر نفسه ، ألد أعدائه ، ذلك الذى سجنه ابن جحاف وآذاه ، شعر بالألم لمصابه ، وكتب إلى ابن عم له يعزيه فيه ويطنب فى مدحه ويستنزل الرحمات عليه[٣].

واطمأن السيد إلى أمره بعد أن قضى على ابن جحاف وكل مناوئيه فى البلد ، وأخذ يفكر فى توسيع أملاكه ، وترامى بصره إلى الاستيلاء على أكبر الحصون المجاورة لبلنسية وهو حصن مُرْبِيطَر Murviedro ، بل إلى الاستيلاء على الأندلس كله ، وجعل يقول : « على يد رذريق فتحت هذه الجزيرة ،

---

(١) ابن بسام : « الذخيرة » ، « أبحاث » دوزى ، ج ٢ ، ذيل ٢٢ ، ص ١١٥ .

(٢) R.M. Pidal, op. cit. II. p. 554

(٣) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٦ — ١٧ .

وردريق يستنقذها »[١]. وعجل يوسف بن تاشفين بإرسال قوة اقتربت من بلنسية ، ولكن السيد تمكن من تشتيت شملها فى غير عسر[٢].

ثم عاد يوسف بن تاشفين فبعث محمد بن عائشة فى قوة كبيرة بلغت عدة رجالها ثلاثين ألفاً عسكرت عند شاطبة ، وعجل السيد فعقد حلفاً مع پدرو ملك أرغون سنة ١٠٩٤ وسارا معاً للقاء المرابطين . ووجد محمد بن عائشة أنه لن يستطيع لقاء هذه القوة ، ففضل الانسحاب من شاطبة ، وعسكر عند تل على مقربة من بلدة بَيْرين Beiren ، وأراد السيد شحذ عزائم رجاله ، فجعل يتمشى بين صفوفهم يشجعهم ويؤكد لهم أن المسيح سيهبه النصر على المسلمين ، ثم حمل على المرابطين فشتت شمل جيشهم وغنم معسكرهم. وتشجع بعد ذلك وسار نحو مربيطر فحاصرها ، وعبثا حاول أهلها الاستنجاد بالمستعين بن هود والمرابطين ، بل بعثوا يستنجدون ألفونسو السادس وكند برشلونة ، فلم يسعفهم أحد . واستولى السيد على قصبة مربيطر فى ٢٤ يونيو ١٠٩٨ ، وأنشأ فيها كنيسة رسمها باسم القديس يوحنا . وكان السيد قبل استيلائه على البلد ، أذن أن يخرج من أهله من أراد الخروج ، ثم عاهدهم على ذلك قبل استسلامهم ، وأفلت منهم نفر . فلما استولى عليها فرض على من بقى منهم مالا جسيماً اجتهدوا فى جمع ما استطاعوا منه ، فلما أخذ المال أمر بأهل البلد فأخذوا أسارى جميعاً وسيقوا مكبلين إلى معسكره فى بلنسية[٣].

وعاد السيد بعد ذلك إلى بلنسية ليتم نقمته على أهلها ، فأمر بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة ، وأفرغ على تأثيثها أموالا جليلة واستدعى من فرنسا أسقفاً كلونياً هو Jerome de Périgord وأقامه أسقفاً لبلنسية[٤]. وكان يحس دائماً أن المرابطين من ورائه ، فاجتهد فى تحصين البلد .

واستدعى زوجه خيمينا وبنتيه كريستينا وماريا وزوج البنتين لأميرين نصرانيين ، وأقام أعراساً فاقت فى بهجتها ونفقتها أعراس أمراء المسلمين .

---

(١) ابن بسام : نفس المصدر ، ص ١٤ .

(٢) Dozy, Recherches, II. p. 188

(٣) Dozy, Recherches, II. pp. 193-194.

(٤) Lévi-Provençal, Le Cid de l'histoire, dans : L'Islam d'Occident, p. 181.

وفاة رذريق :

وصمم المرابطون آخر الأمر على استعادة البلد ، وأخذت قواتهم تناوش قوات السيد ، وقتلوا ابنه Diego فى إحدى المعارك ، وكان دييجو فى التاسعة عشرة من عمره ، فهاضت الكارثة نفس أبيه المغامر الذى لم يعرف مرارة الألم قبل ذلك ، والتحم المرابطون فى معركة أخرى مع قوات نصرانية قرب قونكة وقتلوا الفارس البرهانس ، بل هزموا جيشاً للسيد نفسه على مقربة من جزيرة شقر Alcira ، وأراد السيد الانتقام ففاجأ حصن « المنارة » الإسلامى واستولى عليه .

وفى ظلال هزيمة « جزيرة شقر » وفجيعة ابنه مات السيد فى يوليو ١٠٩٩ بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات ، وأقبلت قوات المرابطين يقودها أعظم قوادهم محمد بن مزدلى ، وشددت الحصار حول بلنسية . وحاولت « خيمينا » زوج السيد الدفاع عنها فلم تستطع ، وبعثت تستنجد بألفونسو السادس ، فأقبل ورأى قوات المرابطين وتبين ألا فائدة من قتالهم ، فنصح خيمينا بترك البلد ورجع إلى طليطلة . فلما تبين المحتلون قلة جدوى المقاومة أحرقوا البلد حتى جعلوه كومة رماد ثم خرجوا . ودخل محمد بن مزدلى البلد فى أوائل مايو ١١٠٢ ، وأخذ رجال السيد رفاته معهم ودفنوها فى دير San Pedro de Cardena واعتزلت خيمينا فى هذا الدير وعاشت بعد زوجها خمس عشرة سنة .

* * *

خاتمة :

تلك هى قصة السيد الكنبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، حارب فى صفوفهم وعاش معهم وخدمهم وعرف لغتهم ووجد عندهم المأوى أيام نفيه وتشريده ، ثم قسا عليهم ولم يدخر مع ذلك وسعاً فى إيذائهم وتخريب ديارهم وحرقهم بالنار حينما أمكنته الفرصة فيهم . وذلك فى ذاته أمر يبعث على العجب فى طبيعة ذلك الرجل الذى بدأ بعد موته بقرن يتحول فى نظر الإسبان إلى شخصية أسطورية تتمثل فيها أجمل صفات الإسبانى فى أحسن صورها . ونسج القصاصون والشعراء حول حياته أروع ملاحم البطولة الإسبانية وهى قصيدة السيد

El Poema de Mio Cid ، وجعله « پيير كورنى » رمز الشرف والشهامة والواجب . وقضى أكبر علماء إسبانيا المعاصرين — رامون مننذذ پيدال — نحو عشرين سنة من حياته يتعبد فى محرابه ويجمع أخباره ، وأخرج فى سيرته أكبر عمل تاريخى ظهر فى إسبانيا خلال نصف القرن المنقضى وهو كتاب La Espana del Cid لم يدع فضيلة إلا نحله إياها ، وجعله جماع الخير كله ، والفضل كله ، والإنسانية كلها ، بل جعله طليعة العاملين على وحدة إسبانيا وبعثها ، وأزرى فى هذا السبيل بمعاصر للسيد فعل — من غير شك — أكثر مما فعل السيد فى سبيل إسبانيا النصرانية ، وهو ألفونسو السادس الذى يسمى فى النصوص العربية باسم ابن ردمير .

بيد أن مننذذ پيدال لم يستطع رغم هذا الجهد العظيم أن يمحو من أذهان الناس الصورة البشعة التى صور دوزى السيد بها فى مقاله الذى أشرنا إليه ، ولن يستطيع فيما أظن ، لأن الوقائع والشواهد أقوى من البلاغة والتكلف ، والتاريخ — بعد كل شيء — لا يبنى على العواطف . والمسألة — آخر الأمر — تتعلق بحوادث مضى عليها أكثر من عشرة قرون . وأختم هذا الكلام بعبارة طريفة لابن بسام فى السيد ، قال : « وكان هذا البائقة أوحد وقته فى دِرب شهامته ، واجتماع حزامته ، وتناهى صرامته — آية من آيات ربه إلى أن رماه سريعاً بحتفه ، وأماته ببلنسية حتف أنفه . وكان — لعنه الله — منصور العــلم ، مظفرا على طوائف العجم ، لقى زعماءهم مراراً ، كغرسية المنبوز بالفم المعوج[١] ، ورئيس الإفرنج ، وابن ردمير ، ففل حد جنودهم ، وقتل بعدده اليسير كثير عددهم ، وكان — زعموا — تدرس بين يديه الكتب ، وتقرأ عليه سير العرب ، فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب ، وطفق يعجب منها ويتعجب[٢] » .

* * *

---

(١) كان غرسية هذا يوصف بهذا الوصف فى اللغة الإسبانية أيضاً : Bocatuerte

(٢) ابن بسام : « الذخيرة » ، نفس المرجع ، ص ١٤ .

هذا هو المكان الذى يحتله السيد القمبيطور فى تاريخ إسبانيا السياسى وهو — فى واقع الأمر ، ومهما ترخصنا فى التعظيم من شأنه — دور صغير لم يكن له أثر ظاهر فيما تلا ذلك من أحداث التاريخ الإسبانى . ولكن السيد يحتل من نفوس الإسبان ، رغم ذلك ، مكاناً لا تدانيه فيه شخصية أخرى : فهو « البطل القومى » ، وهو رمز الرجولة والبطولة والشهامة عند الإسبان .

وقد بدأ السيد يأخذ هذه الهيئة البطلية الأسطورية بعد وفاته بقليل ، فقد أحدثت أعماله ومغامراته دوياً بعيد المدى فى نفوس الإسبان ، وأعان على ذلك أنه ظهر فى فترة الصراع بين قشتالة وليون على السيادة فى أيبريا ، وتزعم القشتاليين ضد الليونيين . ثم إن أسطورته تكونت بعد ذلك فى فترة بلغ فيها النفوذ الغالى (نسبة إلى غالة ، وهى فرنسا) أقصاه فى إسبانيا عن طريق الفرسان الفرنسيين والرهبان الكلونيين ، الذين كان ملوك إسبانيا يستعينون بهم ويطلقون يدهم فى كل شىء . هذا ، فضلا عما بسطناه من كفاحه مع المسلمين كفاحاً قومياً دينياً يثير حماس الإسبان . فتجمعت هذه العواطف كلها حول شخص السيد ، ومضى القصاصون والمنشدون ينشئون حوله الأقاصيص والأشعار ، يصورون بها صراع القشتاليين لليونيين وامتيازهم عليهم ، ويصورون فيها تفوق الإسبان على الفرنسيين وظهورهم عليهم فى ميادين الحرب والنزال ، ويصورون بها نزوع إسبان ذلك العصر إلى الحد من سلطان ملوك ليون واستنكارهم للسلطان الفرنسى الكلونى الذى كانوا يشجعونه .

من هنا تكوّن — مع الزمن — ذلك الديوان الضخم من الأناشيد والقصائد والملاحم التى تدور حول شخصُ السيد ، وأهم ما فيه « قصيدة سيدى El Pœma de Mio Cid » وهى ملحمة كبيرة ظهرت بعد « ملحمة رولان » بأربعين سنة ، وتشبهها من نواح كثيرة : فكلتاهما أنشودة أعمال ووقائع Chanson de Geste ، وكلتاهما من الشعر القصصى الشعبى الطويل النفس ، وهما تقفان — جنباً إلى جنب — مع أروع ما لدينا من الملاحم القصصية الكبرى ، كالنيبلونجن ، والبيووُلف ، و « موت آرثر » ، والشهنامة ؛ وكلها « دواوين شعوب » نسجت

حوادثها وأبياتها أحاسيس الأمم وهى فى مداخل الصبوة والتطلع إلى المغامرات وعظائم الأمور .

* * *

وقد كتب قصيدة السيد شاعر إسبانى مجهول الاسم ؛ ولا بد أنه قرأ « ملحمة رولان » وغيرها من « أناشيد الأعمال » الفرنسية واتجهت همته إلى إنشاء قصيدة على غرارها . وقد وجد بين يديه أخباراً كثيرة عن صراع قشتالة مع ليون وما وقع من الحروب بين الفرسان والملوك ، وكلها أخبار منثورة ولكنها شاعرية الروح ، بعضها قصصى صرف مثل قصة برناردو دل كاربيو Bernardo del Carpio ، وبعضها يدور حول وقائع تاريخية صحيحة ، وقد وصل إلينا الكثير منها فيما بقى لنا من مدونات التاريخ الإسبانى ، (انظر فهرس المراجع) .

ويغلب على الظن أن ناظم هذه الملحمة رجل مستعرب من بلدة « مدينة سالم Medinaceli » ، على الحدود بين مملكة قشتالة وإمارة سرقسطة الإسلامية إذ ذاك ، وقد فرغ منها عام ١١٤٠ م . ، أى بعد وفاة السيد بأربعين عاماً . وهى تشبه « ملحمة رولان » من حيث الصياغة والقالب ، فهى تتألف من أبيات طوال فى كل بيت منها نحو أربعة عشر مقطعاً ، وكل بيت مشطور إلى مصراعين ، والقصيدة كلها مرسلة على هيئة فقرات ، كل فقرة منها على قافية واحدة ، والفقرات غير متساوية الطول . والملحمة كلها تتناول فترات مختلفة من حياة السيد تبدأ من أيام صباه Mocedades del Cid وتنتهى فى أواخر أيامه ، وتدور حول وقائعه مع صهريه فَتيَى الكريون Los Infantes del Carrion

وقد أثبت رامن مننذ پيدال أن « قصيدة السيد » تساير الوقائع التاريخية فى معظم الأحوال ، وأن القصاص لم يبالغ إلا فى الحالات التى راقت خياله الشاعرى ، كهذه التفاصيل الكثيرة التى ترد عن بنتى السيد وما وقع لهما مع زوجيهما ، وذلك الإسهاب الذى وصَفَ به حصار سمورة ومقتل الملك شانجة ، وما إلى ذلك .

والقصيدة تصور السيد بطلا محارباً شجاعاً ، مدار حياته الحصول على الممتلكات « Averes » ، ويراد بها فى القصيدة الأموال والأراضى ، والقصاص

هنا أقرب إلى حقيقة السيد من الاتجاه الحديث فى الترجمة له عند الإسبان المعاصرين . ولا يغلب على القصيدة الطابع الدينى كما ترى فى ملحمة رولان ، فهى لا تدور حول الحرب مع المسلمين ، ولا يصور المسلمون فيها أشراراً أشقياء، بل مدار الحديث الصراع بين القشتاليين والليونيين وحروب السيد مع أكناد برشلونة . وهذا لا يمنعنا من القول بأن القصيدة تصور السيد مسيحياً صادقاً مخلصاً . وروح القصيدة معتدل رزين ، والسيد يصور فيها رجلا عادياً يمتاز عن غيره بمزيد من فضائل الشجاعة والذكاء واليقظة والشرف ، وقد رمى القصاص من وراء رسمه على هذا النحو ، إلى تصوير الصراع بين أوساط الناس الذين قامت على أكتافهم إمارة قشتالة ، مع الأغنياء والنبلاء الذين كانوا يؤيدون ليون . والمعروف أن هذه الروح القشتالية ، هى التى انتصرت وسادت إسبانيا وتولت الكفاح الحقيقى مع المسلمين فيما بعد ، وقد أبدع منندذ پيدال فى تصوير هذه الناحية فى كتابه عن السيد ، وعرف كيف يصور انتقال مركز التوازن فى أيبريا من إسبانيا الغربية الأطلسية La Espana Atlantica (جليقية وأشتريس وليون) إلى إسبانيا الشرقية المتوسطية La Espana Mediterranea وبيّن كيف كان هذا الانتقال هو الخطوة الحاسمة فى توحيد إسبانيا وميلادها من جديد . والقصيدة تصور شعباً أفضل بكثير مما تصوره قصيدة رولان ، والفضائل التى تنص عليها إنسانية أقرب إلى روح العدالة والمساواة مما نرى فى الملاحم الفرنسية المعاصرة لها ، وهى تعتبر — من هذه الناحية — وثيقة هامة من وثائق التاريخ الإسبانى .

* * *

وتعطينا « القصيدة » عن حياة فارس بيڤار صورة تختلف عن صورته فى التاريخ من نواح وتتفق معها فى نواح أخرى . وإليك ما تعرضه من جوانب حياته للمقارنة بما أسلفنا من ترجمته :

تبدأ القصة بمشهد خروج السيد إلى المنفى بعد اختلافه مع الملك نتيجة للوشايات التى ألقاها بينهما الكند غرسية أرْدُنييذ ، وهى تصف كيف أودع السيد زوجه وبنتيه أحد الأديرة وابتهل إلى الله أن ينسأ فى أجله حتى يزوج هاتين البنتين زواجاً صالحاً ويقضى السنوات الأخيرة من عمره فى سلام عائلى .

ثم يتزود بشيء من المال حصل عليه من يهوديين بُرْغشيين بحيلة بارعة ، ويبرح أرض قشتالة يحيط به لمة من فرسانه لا يجاوز عددها الثلاثمائة ، وقصد أمير سرقسطة المسلم ، وعبأ فرسانه ومن انضم إليه من المغامرين على هيئة « رِدْفة » من المقاتلين mesnada ، ومضى ينوش بلاد جيرانه وينزل بهم الهزيمة بعد الهزيمة ، وتوالت انتصاراته على أكناد برشلونه النصارى بصفة خاصة .

وتضخمت ردفته وعظمت قواه ، فلم يلبث أن استغلب بلنسية وانتزعها من أيدى أصحابها المسلمين ، ثم يستقدم زوجه خيمانة Ximena و بنتيه ليقمن معه فى البلد الذى فتحه وأمَّر نفسه عليه . و يلتقى فى أثناء ذلك بجيش يقوده « يوسف » أمير المرابطين وينتصر عليه انتصاراً عظيما . وعلى إثر هذه الانتصارات رضى الملك ألفونسو عن السيد ، وصفح عنه وعرض أن يختار لبنتى السيد زوجين من أبناء البيوت الغنية ricoshombres ، واختار فتيين شقيقين هما ولدا كُنْدْ الكريون ، وكانا من أقارب غرسية أوردونييذ خصم السيد ، ولكنهما رضيا بالزواج من بنتيه طمعاً فى مالها . وتم الزواج فى بلنسية وأقام الفتيان فيها ، ولكنهما ظلا يتعاليان على زوجيهما ويلمزانهما بأصلهما المتواضع ، فوقع البغض والنفور بين السيد وصهريه ، ثم حدث أن انهزما فى قتال مع نفر من المسلمين انهزاماً قبيحاً ، فازدراهما رجال السيد ، فتغيرت نفساهما وامتلأتا بالحقد وأضمرا الانتقام ، وأعلنا أنهما مزمعان العودة إلى قشتالة بزوجيهما ، ومضيا بهما ، حتى إذا بلغا غابة بلوط عند قرية كوربس Corpes فى قشتالة انهالا على زوجيهما ضرباً وسلباهما كل ما كان معهما وتركاهما فى الغابة ووليا هاربين . وشكا السيد إلى ألفونسو ما فعل الفتيان ببنتيه ، فعقد ألفونسو محكمة لسماع الشكوى ، وطلب السيد أن يرد الفتيان إليه سيفين قيمين كانا قد سرقاهما ، فأجابته المحكمة إلى ما أراد ؛ ثم طلب رد بائنتى بنتيه ، فأجابه القضاة إلى ذلك أيضاً ؛ ثم طلب أن تأذن له المحكمة فى الانتصاف لشرفه بمبارزة الفتيين ، حسبما تقضى عادات القوط الغربيين القديمة ، فطال الأخذ والرد حول هذا الطلب . وفى أثناء ذلك أقبل رسل من لدن ملكى نبره وأرغون يخطبان بنتى السيد لابنيهما ، فأجابهم ألفونسو إلى ما طلبوا . ثم تثور المبارزات وينهزم الفتيان انهزاماً مخزياً ، وعلى صليل السيوف تنتهى تلك الملحمة القصصية الطويلة .

* * *

أما من الناحية الأدبية ، فتتسم القصيدة بعنف وجفاف وبعد عن المحسنات والتزام للطابع الواقعي ، وهي – من هذه الناحية – تقل عن ملحمة رولان ، بل إنها تستعير من تلك الملحمة الفرنسية الكثير من الفقرات التصويرية التي تحتاج إلى خيال بعيد، غير أن ناظمها وفق – رغم ذلك – إلى ضرب آخر من الجمال لم يوفق فيه تورولد Turold ناظم ملحمة رولان . والسيد يصور لنا في معامع المعارك رجلا أيداً يتوسط رجاله والدم يسيل على ذراعه دون أن يحفل له ، وقد غطى وجهه بمغفر من الزرد almofar ، فإذا حمي الوطيس نزع مغفره عن رأسه وأشار إشارة الهجوم ، وما هي إلا جولة حتى يكون النصر المؤزر . ومن أمثلة هذه الفقرة التي تصور جانباً من معركة أبدع تصوير :

Embraçan los escudos	—	delant los coraçones
abaxan los lancas	—	abueltas de los pendones
enclinaron las caras	—	de suso de los arzones
iban los ferir	—	de fuertes coraçones.
A grandes voces llama	—	el que en buen ora nacio :
"Feridlos caballeros	—	por amor del Criador !

Yo so Roy Diaz, el Cid de Bivar Campeador !"

وترجمتها :

أمسكوا بدروعهم	وجعلوها دون قلوبهم
وخفضوا حرابهم	المدلاة بالحمائل
ومالوا بوجوههم	على سروجهم
واستعدوا ليضربوا	بقلوب قوية
وفي صوت عال نادى	ذلك الذي ولد في ساعة سعد
[وقال :] اضربوهم أيها الفرسان	حباً في الخالق
أنا روى دياذ السيد	مقاتل بيڤار

وأجمل ما في القصيدة – كما قلنا – هو تصوير نفور صغار الناس من

الاستبداد ورغبتهم فى الخلاص منه . والسيد — هنا — يصور لنا نزوعاً اجتماعياً .
وما ألطف قول صاحب القصيدة ، عقب ذكره لنفى السيد من بلاط ألفونسو :

Dios que buen vasallo, si oviesse buen sonor

يا إلهى ! ما كان أعظمه من تابع   لو أنه وجـــد سيداً حسناً

وهذا البيت يكاد يوجز فكرة القصيدة كلها ، بالضبط كما أوجز تورولد فكرة ملحمة رولان بقوله :

Paien unt tort e chrestiens unt dreit

الكفار على ضـــلال   والنصـــارى على صواب

المراجع

مراجع عربية :

ابن الأبار القضاعى ، أبو عبد الله : « الحلة السيراء » — نشر دوزى القطعة الخاصة بابن طاهر — ومنها الكلام على السيد — فى « أبحاثه » ج ٢ ، ملحق ٢ ، ص ٢٧ — ٢٩ .

— « التكملة » — طبعة مدريد ١٨٨٧. انظر الترجمة رقم ٥١٤ ، ص١٤٦.

ابن بسام ، أبو الحسن على الشنتريني : « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » قطعة كبيرة عن السيد ، جعلها ابن بسام ضمن مادته عن ابن طاهر فى القسم الرابع الخاص بشرق الأندلس . وقد كتب ابن بسام هذه القطعة فى إشبيلية سنة ٥٠٣ — ١١٠٩ ، أى بعد وفاة السيد بعشر سنوات فقط ، وهى لهذا من أهم ما لدينا عنه ؛ وقد نشرها دوزى فى « أبحاثه » :
DOZY, *Récherches*, II. opp. I pp. IV — XVIII.
مع ترجمة فرنسية وتعليقات ضافية

السيوطى : « بغية الوعاة » — انظر : ترجمة أحمد بن عبد المولى البلنسى البتى ، أبى جعفر .

الضبى : « بغية الملتمس » طبعة كوديرا ، مدريد. انظر مادة أحمد بن عبدالمولى البتى ، أبى جعفر .

ابن عبد الملك المراكشى : « كتاب الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » . مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس ، نشر دوزى القطعة الخاصة بابن علقمة وكتابه فى « أبحاثه » ، ج ٢ ملحق ٥ ، ص ٣٨ — ٣٩ .

ابن عذارى المراكشى ، أبو العباس : « البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب » — ج ٣ ، نشره ليڤى پروڤنسال سنة ١٩٣٠ . ثم عثر بعد ذلك على « البيان المغرب » كاملا ، ووجد فى الجزء الرابع كلاماً كثيراً عن

السيد اعتمد المؤلف فيه على كتاب ابن علقمة ، فنشر منه قطعاً فى مقال عن « استيلاء السيد على بلنسية » فى مجلة الأندلس . (انظر فى المراجع الإفرنجية تحت اسم ليڤى پروڤنسال)

ابن علقمة ، أبو عبد الله محمد بن خلف : (١٠٣٦/٤٢٨ — ١١١٦/٥٠٩)
« البيان الواضح عن الملم الفادح » — ضاع أصل هذا الكتاب ، ووجدنا قطعاً منه فى جزء جديد من « البيان المغرب » لابن عذارى ،(انظر هذا المرجع) ، ووُجدت قطع كبيرة منه مترجمة إلى الإسبانية فى « المدونة العامة الأولى Pr. Cr. Gen. » (انظرها فى المراجع الإفرنجية) ، وعنها نقل راهب دير القديس پدرو فى كاردينيا قطعاً أدخلها مدونته التى نشرها خوان ڤيلورادو وجعلها ضمن كتابه المسمى Cronica del Cid ، وهذا الكتاب هو الذى يسمى الآن « المدونة الخاصة بالسيد Cronica particular del Cid » انظر المراجع الإفرنجية تحت ليڤى پروڤنسال .

ابن الكردبوس : « الاكتفاء فى أخبار الخلفاء » — مخطوط بمدرسة الدراسات العربية بمدريد ،ونشر القطعة الخاصة بالسيد منه دوزى فى « أبحاثه » ، ج ٢ ملحق ٢ ، ص ١٨ — ٢٢ .

المقرى ، أحمد بن محمد : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » طبعة لايدن ١٨٥٦ — ١٨٦١ ، انظر الفهرس .

مراجع غير عربية :

ASCHBACH : *De Cidi historiae fontibus*. Bonnae, 1843.

BRIZ, FRAY JUAN : *Historia de San Juan de la Pena*. Zaragoza, 1620.

CIROT, G. *Le vrai Cid* apud *Bulletin Hispanique*, XLI (1939).

DOZY, REINHART : *Le Cid d'après des nouveaux textes. dans Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le moyen-âge*. (3°éd. Layade 1881) vol. II. pp. 1-243, et les appendices I-VI.

FRANCISCO DE BERGANZA : *Antigüedades de Espana*. 1719.

Gesta de Roderici Campidocti (= *Carmen latina*)
cf : R.M. Pidal, op. cit. II pp. 915 *Sqq*.

Historia Roderici. cf : Risco, Espana Sagrada, XXXV. Madrid 1786
— R.M. PIDAL, *Espana del Cid*, II. pp. 901 *Sqq*.

HUBER : *Gesch. des Cid*, 1829.

HURTADO, JUAN — J. DE LA SERNA — ANGEL GONZALEZ PALENCIA : *Historia de la literatura Espanola* (6ªed.) Madrid 1949.

LEVI-PROVENCAL, E. : *Observations sur le texte du Bayan d'Ibn 'Idari apud Mélanges Gaudefroy — Demombynes* (Le Caire 1937) pp. 241 *Sq*.

— *La toma de Valencia por el Cid apud Al-Andalus*. vol. XIII, fasc. 1, 1948.

— *Le Cid de l'histoire* apud *Islam d'Occident* (Paris 1948) pp. 154-185.

MASDEU : *Historia critica de Espana y de la cultura espanola*. t. XX, 1805

MENÉNDEZ PELAYO : *Antologia de pœtas liricos*, tomo XI, 1903.

MULLER, JOHAN : *Der Cid nach den Quellen*. Frankfurt a. Main, 1805.

EL POEMA DE MIO CID ed. R.M. PIDAL. 2e. ed. Madrid 1948.

PRIMERA CRONICA GENERAL.
أمر بتأليفها ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، ونشرها رامون منندذ پيدال فى مدريد ١٩٠٦ .

PRUDENCIO DE SANDOVAL : *Historia de los cinco reyes*. Pamplona 1615.

PUYOL, JULIO : *El Cid de Dozy* in Revue Hispanique. XXII, 1910.

QUINTANA : V*idas de Espanoles Célebres*. 1833.

R. AMADOR DE LOS RIOS : *Burgos*. 1888.

RAMON MENEDEZ PIDAL : *La Espana del Cid*. Madrid 1948.

— *La politica y la reconquista en el siglo XI* (*Examen de los ultimos escritos referentes al Cid*) in Revista de estudios politicos. No. 35-36 vol. XIX.

RISCO : *La Castilla y el mas famoso castillano*. Madrid, 1792

حسين مؤنس